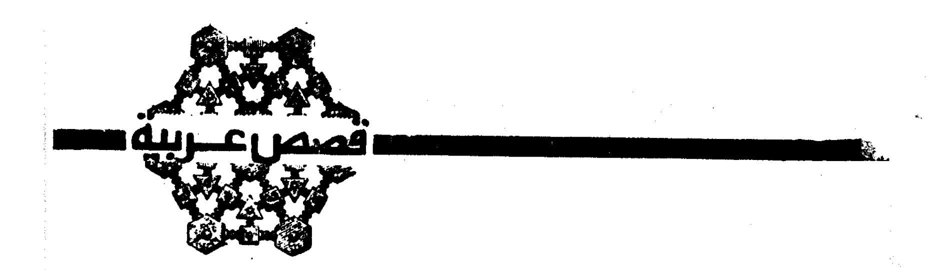
عسل الشمس

مجموعة قصصية

فؤاد قنديل



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٠


قصص عربية

الاخراج الفنى :

جرجس ممتــاز

أمنيـــات بهانـــة

لم يبق حتى تبلغ المدينة غير كيلو متر واحد ، القفة المحشوة بحزم البقدونس والجرجير والكرات ثقيلة · الرقبة المشدودة تعين الرأس على حملها ، وذراعها اليمنى تحرسها من الوقوع ، بينما تحتضن رضيعها بالذراع اليسرى ، تضـــمه الى الصدر المجهد والقلب · الرضيع بفمه وقبضته وعدد من الأظافر الناعمة يتشبث بالثدى الذى يشبه بالونه فرغت من الهواء ··

الأفق يضيق والسماء معتمة · الضباب كثيف وقطرات الندى تطير وتسقط على كل شىء ، وهى ماضية لاتعبأ ، تشق الحجب فى ردائها الأسود كشبح مهيب يجتاز فضاء لا نهائيا ، تصحبها الأشجار التى تصطف على جانبى الطريق فى أصرار وتسبقها الى المدينة ·

القدمان الحافيتان تتقدمان فى ايقاع ثابت ولحوح فى محاولة لدفع الطريق الى الوراء ·

البرد قارس يصفع معالم الوجه الجاد ، والعينان المتطلعتان للمدى المبهم يترقرق فيهما الدمع · قنوات صغيرة من العرق تنحدر على اخاديد الرقبة المتصلبة ثم تذوب فيما بين الثوب والجسد ·

القدمان الحافيتان اللتان تنقلان الخطو بهمة ، أصبحتا من طول الحفاء قطعتين عنيدتين من العظم والجلد المشقق ، ونادرا ما يحس الجسد الحى والمختبىء خلف الثياب بما تقاسيانه على الطريق الصعب ·

بثوب الأم كانت طفلة صغيرة تتعلق ، وتندفع فى خطو متعثر دون أن تقع ، والأم فى اجتياحها تبدو كأنهـــا لا تحس بالمقطورة الصغيرة ·· كان عليها أن تصحبها معها بدلا من تركها بالبيت وحيدة بعد أن يذهب أخوها واختها الى المدرسة الابتدائية ·

طوال الطريق لم تبرح رأسها خريطة الســوق وتضاريسه ، والمكان الذى تود لو يسعدها الحظ وتحط فيه اليوم · أنه ركن صغير لكنه قريب من الباب ويسهل رؤيتها فيه · أكبر مشكلة فى حياتها انها لا تستطيع أن تحافظ على هذا الركن كل يوم · فهى لا تلحق به يومين متواليين ، رغم تفكيرها الدائم فيه طيلة النهـــار وأثناء النوم ورغم تبكيرها بالخروج لتقطع هذا المشوار الطويل من كفر سندنهور الى بنها ·· دائما هناك من ينقض عليه · وليس لديها عربة يد أو أى شىء تتركه فى الركن يحرسه لها حتى تجىء ·

كبار الباعة لا يحملون لذلك هما ، فعرباتهم موجودة والعسكرى الملعون لايقترب منها ·

تذكرت زوجها محفوظ العسكرى ، الذى هو طبعا أكبر وأهم من

هذا العسكرى البارد ، لأن زوجها يعمل فى مصر ومع ضباط كبار ، واليوم بالذات سيركب الشريطة الثالثة ٠

ابتسم خاطرها لأنها قالت لسنية أم الواد فتحى جارتها فى السوق ٠٠ ان زوجها شاف الريس ٠

تحولت اليها سنية فى اهتمام وسالتها : معقولة

فأكدت لها بهانة : هى مرة واحدة يابت !

ولن تنسى ابدا يوم قررت أن تحكى لسـنية ام الواد فتحى وكريمة « الصفراء » عن ولدها جلال ٠

– باركوا لى ياولاد ٠٠ ابنى دخل الكلية ٠

قالت الجارتان فى صوت واحد : والنبى يابت يابهانة !

ردت بهانة وقد احست بالدهشة التى علت وجهيهما ولونت صوتيهما :

– أى والنبى ٠

سالتها كريمة « الصفراء » التى يلبس وجهها ستين وجهـا فى الدقيقة ويتلون بعشرين لون فى الثانية الواحدة : كلية ايه ان شاء الله ٠

تمهلت بهانة لحظة وأعدت لسانها لتقول فى نفس واحد : كلية الاقتصاد والسياسة ٠ بصت كريمة لسنية ومصت ليمونة بشفتيها : ودى يتوظف بيها فين ٠ ؟

قصدت بهانة أن تتروى هذه المرة – لأن ما ستقوله يجب أن يقال واحدة واحدة وبوضوح وأيضا لأنه لا يجب أن يكرر ٠٠ قالت كما سمعت من بعض المتعلمين عندهم فى الكفر :

ـ جلال ابنى يتخرج من الكلية دي يطلع على وزارة الخارجية عدل ٠

مصت كريمة « الصفراء » شفتيها من جديد فى تعجب ساخر تشوبه مرارة :

ـ آه ٠٠ ابن بهانة ح يروح وزارة الخارجية وجوزها بيشوف الريس ٠

قالت سنية بطيبتها المعتادة :

ـ وفيها ايه ياكريمة

جنت كريمة : فيها ايه ازاى ، وده معقول ؟

خبطت بهانة على صدرها وقالت بلا غضب : يعنى أنا كذابة ٠

تحولت اليها كريمة المذعورة : لا ياحبيبتى ٠٠ العفو ٠٠ بس صواميل عقلك عايزة تربيط ٠

تدخلت أم الواد فتحى قائلة : بس ياكريمة عيب ٠٠ ربنا يسعدها بأولادها ٠٠ ماهى راخرة بتشقى ولابد ربنا يكافئها ٠٠

هدأت كريمة بعد جهد ، ولكن بهانة كانت قد قررت ان تحتال بأى طريقة حتى ترى جارتيها زوجها وهو بالبدلة الميرى والشرايط ، وايضا ولدها وهو قادم من مصر كل خميس ٠٠ لكن ذلك لم يحدث ، لأنها هى نفسها كلما حاولت ان تقدم على ذلك عادت فتراجعت وطردت الفكرة ، وفى كل مرة تقنع نفسها قائلة :

ـ ما حدش فاضى لحد ٠٠ وجلال ابنى ربنا يعينه على المذاكرة والسفر والمعيشة الفقايرى اللى عايشها مع زمايله ٠

تذكرت بهانة أن اليوم عمدة بلدهم عنده « ليلة » ·· سيقيم حضرة وذكر طبعا ، وسيذبح عجلا كالعادة ·

ـ ياريتك يابنى تيجى النهاردة علشان تتقوت بحتة لحم ·· احست بالتعب فجأة يخدر اعضاءها ، لكنها ثارت عليه وشـــدت اعصابها وزاد اصرارها ، هدهدت نفسها ·

ـ الدنيا من غير تعب مالهاش طعم ، وبكرة تفرج

تبخر كل اثر للارهاق والتعب وهى تمنى نفســـها بالعودة المبكرة كى تستعد لزوجها وتراه بالشـــريطة الثالثة وابنها الذى سيجىء اليوم من مصر ·

وحدها تزرع ربع فدان أجرته بنفسها ، وتبيع بنفسها محصوله الذى لا يكفى مع مرتب الرجل كى ياكل اولادها ويلبسون كما تتمنى لهم ·· لكنها دائما ـ لاتدرى لماذا ـ تحس أن الله يرقبها هى بالذات ولن ينساها ·

الرأس يفكر ويتمنى ويتمنى ، والقلب يرقص متفائلا والنهار الرمادى الوليد يداعب الكون الذى لفه النعاس ، والقدمان الحافيتان فى خفة تتقافزان فوق الطريق ·

مع كل لحظة تبتعد القرية وتتلاشى ، وتلوح معـــالم المدينة وتتخلق ·· تطلع عليها من الأفق المجهول ، بينما الوقت يمـــر بسرعة ·· يقفز مثل لحظات الغروب فوق الأعمار ·

تعودت الطفلة الملتفة بالهلاهيل من الرأس الى القدم أن تقطع هذا المشوار كل يوم ، وتعلمت أن تكبح سخطها من اندفاع أمهـــا ، تدفع خلفها خطوها اللاهث ، وفى كل خطوة توشك أن تقع ويتأجل الوقوع للخطوة التالية ·

فى قلب المدينة غدت الرؤية ممكنة فقط خلال الشوارع التى تمتد بين عمائر شاهقة ، السـيارات شرعت تجرى والناس خلفها وأمامها يجرون ، والقدمان الحافيتان لا تحفلان بالأرض الجديدة ، تهبطان فى بحيرات الماء وتدوسان الحصى وتخوضان فى النفاية ٠

المقطورة الصغيرة فى حرص شديد تتشبث بالثوب وتحاول ترتيب الخطوات بلا جدوى ٠ اندفعت بهانة صوب السوق وقد توالى دعاؤها الى الله ان تجد الركن بلا محتل ، ولكنها حين بلغته تلقت الصفعة القاسية ، كانت هناك حسنية زوجة رجب الأعرج ٠٠

فى نفسها قالت :

– داهية تأخذها هى وجوزها

مرت بها سريعا ولم تجد فرصة لكي تقول شيئا

أسرعت تلف السوق ٠ تمسحه على عجل وبتحفز شـديد ، فالوقت يمر والباعة يخرجون من الأرض اكثر من المشترين ٠

عادت الى حسنية ٠٠ ودت لو تلقى ما معها كله فوق رأسها ٠ نظرت اليها حسنية متوعدة ٠٠ تحولت عنها وتأملت السـوق من جديد ٠ كان الكل قد حط لم تجد غير موضع صغير على آخر حدود السوق جهة الشارع ٠٠ تمتمت وهى تجلس :

– ربنا يسترها النهاردة مع سليم العسـكرى ٠٠ كده انا قاعدة رجل جوه ورجل بره ٠

علمت نفسها أن تجلس والقفة لاتزال على رأسها دون معاونة ٠ هبطت أولا على ركبتيها كالجمل ، وحطت مؤخرتها فوق الكعبين كجلسة المصلى ، ثم سحبت سـاقا من تحتها فأصـبحت أمامها وسحبت الأخرى وربعت ، ثم وضعت الرضيع فى حجرها ، فأفلت الثدى من فمه ٠٠ ضرب الهواء بيديه بحثا عنه ٠٠ اهملته الى ان

انزلت القفة بيديها الاثنتين · وضعتها أمامها وكشفت عما بها ·· ردت الملهوف الى صدرها ومدت ساعدها الأيسر تحته · ضمته فى حنان آلى وسرعان ماعثر بالثدى واطمأن حين استقر رأسه على قلبها الواجف ·

اسندت الطفلة رأسها على فخذ الأم ودست وجهها فى بطنها وتمددت ملتصقة بمؤخرة أمها طلبا للدفء ، وشرعت تكمل نومها الذى قطعه بعنف المشى فجرا فى طريق طويل ·

طابت نفس بهانة بعد أن استقرت وتنفست لأول مرة منذ غادرت قريتها · أخذت ملامحها تستعد للصباح الجميل ، بينما كانت توزع تحياتها على زميلاتها وتسأل عن أحوالهن ويداها تسوى حـــــزم الخضروات التى جمعتها عند الغروب وسهرت الليل تضمها فى حزم ·· هاهى تهزها كأنها توقظها من النوم وتعرفها انهم أصبحوا فى السوق وعليها أن تظهر خضرتها اللامعة التى تدل على الطزاجة والنضارة ·

مسحت وجهها وسوت شعرها المنزعـــج من طول الرحلـــة والحمولة ·

اندفع الضباب فجاة وعلا الضجيج مع الشروق ، وكبر غول الحياة مع دبيب الزبائن ·

لاحت منها نظرة ناحية الحاج ابراهيم تاجر الخضـــروات الكبير ·· أهم رجل فى السوق ، الكل يعمل له ألف حساب ·· كان يجلس كعادته فى صدر دكانه وأمامه البورى · بعد لحظات ظهر سليم العسكرى ·· تقدم من الحاج ابراهيم وحياه تحية عامـرة بالقشدة والفل والسعادة ·· رد الخضرى بغير عناية ·

ـ باح الخير يا أبو شرايط

جلس أبو شرايط كما يسميه فقط التجار الكبار ، ودون أن يدرى طالت نظرته للبورى ، فأخذ الحاج ابراهيم نفسا ممتدا ، عبأ به حلقه وشدقيه وناوله لسليم ·· قال التاجر شيئا ، فقهقـه سليم · فرحت بهانة لأن سليم يضحك وهذا معناه أن هذا النهار يمكن ان يضحك ·· اليوم سيتسلم زوجها الشريطة الثالثة ، ويجب ـ اذا اتيحت الفرصة ـ أن تقول لسليم ذلك حتى يعرف قدرهـــا ويحط فى عينيه حبة ملح ·

ـ سليم اللى مرعبب الكل هنا ·· على دراعه شريطين اثنين بس ·· بكره يعرف ان فيه اللى احسن منه ·· وأن عندى ولد فى الكلية ·

عندما عبر جلال بخاطرها ، بدت ملامحها اكثر نعومة واقل عصبية ·· اطلت من عينيها نظرات وديعة ·

ابتسم لها حميدة بائع الطماطم كعادته ·· قررت أن تكون لطيفة معه ولامت نفسها على حدتها التى بلا مبرر ، صـــحيح ان الدنيا تحتشد بالاعداء لكن لماذا يركبها الخوف منه مع أنه مثلها فى حفرة واحدة ·· لابد اذن من السلام ولا داعى لسوء الظن ·· اذا كان احيانا يثقل عليها فى الكلام ، فليس ذلك لغرض آخر غير أن يقضى يوما مسليا ، يغمره الابتهاج ، واذا رقص القلب المكدود فى الحياة المرة ولو بعض مرة ، فانه يستطيع أن يكمل العيش فى هذه الدنيا ·

احست ان شكوكها لا معنى لها ·· فليكن الجميع احبة ·· سرت فى اعماقها بهجة وضيئة واستقر القلب المرتجف ·· رحبت بزبائنها وتساهلت معهم ورضيت عن الدنيا ·

فجأة هبت العاصفة ، وقبل أن تنحنـــى على مالها تحميـه

وتستنقذه ، كان الحذاء الرهيب قد يعثر القفة على الطريق وتمرغت الحزم فى التراب ·

فزعت الطفلة وصرخ الرضيع حين ألقته أمـــه فجأة على الأرض فى عنف حنون ·· اغمدت الثدى وأسرعت تلملم طاقــات العرق والطين ، وهى فى شبه غيبوبة تغالب الدمع · ولم تنتبه الى أن بائع الطماطم كان أول من انحنى يجمع معها رزق العيال ·

خامر بعض المارة احساس عابر بالشفقة والحقد ، وهـــم يرونها تقتلع من السوق بكل هذه القسوة ·· عاد العسكرى بعد ان انهى مهمته المقدسة للجلوس مع الخضرى المنفوش الذى كان يقيس فى زهو كرشه الكبير ··

انتهت المأساة فى ثوان وبقى لبهأنة الخد فوق اليد ، والقلب المفتت ··

اكتسى الوجه الوديع شراسة وجهامة ، ولم يخف على أحد الشرر المتطاير من النظرات المنكسرة ·

استرخت اعضاؤها فى يأس ورأى النـــاس بطنى القدمين الممدين فى استسلام ، وكانت الشقوق المزدحمة تحفر فى اللحـم خطوطا متقابلة ·

ديسمبر ١٩٨٤

عصـــر بهانــة

ـ ياما أنت كريم يارب

قالت بهانة فى سرها عندما وصلها مرسال الحاجة صـفية زوجة العمدة ·· خطفت الرضيع وسحبت فى ذيلها ـ كعادتها ـ الطفلة الصغيرة وسابت الولد والبنت فى الدار واسـرعت الى الدوار تمنى نفسها بالفت واللحم ·· الكل سيجد الليلة عشـاء دسما ·

ـ يقطع ويوصل ·· حكمتك يارب

لم تفكر لحظة ان تبحث عن الحاجة صفية ولكنها دخلت على الشغل طوالى ·· حين طلعت عليهن ، قالت النساء تقريبا فى نفس واحد :

ــ أمى جت

القت عليهن كلمات خاطفة ، وهى تمسح المكان بعينيها

ــ كل سنة وانتم طيبين ٠٠ البواجير دى شوية

حطت الرضيع فى ركن ، ومن نفسها اسرعت أخته تجلس الى جواره ، تهش عنه الذباب وتدس فى فمه البزازة المعلقة فى صدره بدبوس ٠٠ وتعود وتدسها فى فمه لأن العفريت يلفظها بلسانه مصرا على طلب الأصل(١) ٠

اندفعت بهانة تشعل باجورا خامسا ٠٠ وضعت فوقه حلة كبيرة ثم دخلت حجرة العجين لتطمئن عليه ٠ لم يختمر بعد ٠

انقضت على الطشت الكبير تقلب الرز بيدها وتطيل التحديق فيه ٠٠ دعت امرأتين لاعادة تنقيته ٠

ــ الرز لسه فيه الدنيبة واللابسة والحصوة الحمراء ٠

مضت الى الفرن حيث كانت هناك صبية جميلة وطرية ٠٠ المنديل « المدندش » على رأسها مائل ــ والكحل فى عينيها يلون نظرتها ويفجر فيها بحارا مغرقة ٠

أما الخدان ففيهما حمرة شفيفة وبينهما أنف دقيق ، والذقن الصغيرة المدببة ضاعت تحت الشفاه الفراولة ، وعلى أطراف الأصابع يصرخ طلاء الاظافر ويقول بالنيابة عنها : أنا شىء آخر ٠٠ أنا لست مثلهن ٠

لفت الصبية التى بدت غريبة أمام الفرن خرقة قديمة مبلولة على رأس « المجراف » وشرعت تنظف « العرصة » فى أناقة ٠

---

(١) الاهالى فى كفرنا يسمون البزازة لهابة .. لكن معظم أطفال بلدنا لا تخدعهم هذه اللهاية .

قالت لها بهانة بسخرية ناعمة ·

ـ شيلى ياأختى شيلى ·· احمى الفرن الأول ، وبعدهـــا تضعى ··

حاولتالصبية ذات الأنف الدقيق أن تقاوم

ـ أمى يا خالة بهانة ·

ركبتها بهانة بثقة :

ـ لا أمك ولا أمى ·· النار ياحبيبتى ح تساعدك وتنضف معاكى ·· قومى هاتى وقيد

ظهرت الحاجة صفية فى طولها وعرضـــها والعبـاءة على كتفيها كأنها كاهنة فى معبد آمون ·· لاحت على وجهها الأبيض المستدير كطبق البنور علامات الارتياح لاختلاف الحال بعد ظهور بهانه ـ أيوه كده ·

شهد عصر بهانة تحرك الجميع وانتظام العمل وقلة الثرثرة ·· واشتعال بؤر النيران فى كل ركن وتصـــاعد الدخان ، حتى اقشعرت الابدان بالدفء الزائد ونضحت بالعرق ·

خطت الحاجة صفية خطوتين وكأنها تتقدم بحذر الى البحر ، وقد أغرتها مداعبة المياه الشقية ·· مرت بنظراتها على كل شىء ·· لاحظت أن طفلة بهانة الصغيرة تتابعهـــا ولاتحول نظـــراتها عنها ·

قالت : ازى ولادك يابهانة ·

ـ بيبوسوا ايديكى ياحاجة ·

شاركت فى الحديث واحدة عرفت الخبر منذ دقائق فقط

ـ باركى لها ياحاجة ·· محفوظ جوزها يركب الشريطة الثالثة النهاردة رسمت الحاجة أثر المفاجأة وقالت : صحيح ·· ألف مبروك يابهانة ·

استطردت وفى بالها ما يجب عمله لليلة :

ـ الحلاوة على ان شاء الله

ردت بهانة بامتنان صادق

ـ ربنا يخليكى ياحاجة ·· افضالك مغرقانا ·

وزعت الحاجة بضع عبارات ·· انهتها بقولها :

ـ أنا عايزة الليلة دى غير كل الليالى · المعزومين السنة دى كتار وكلهم من كبرات البلد ·· وانتم عارفين أهم حاجة فى الليلة ·· الأكل والشاعر ·

سألت صبية الفرن فى لهفة

ـ فيه شاعر ياحاجة صحيح ؟

قالت الحاجة بفخر : ـ

ـ شاعر كبير ·· صيت مفيش كده ·· همتكم بقى

ثم استدارت وخرجت

دنت بهانة من الفرن لتطمئن على الوقود ·· كانت الصبية قد أحضرت اقراص « الجلة » ، وحطب القطن وبعض الأغصان الجافة ··

جلست بهانة وحشت الفرن بحطب القطن والخشب ·· اشتعل الفرن وتراقصت النار المشتاقة ·· ألقت اليها بهانة بقرص « جلة » من فتحة « العرصة » فتألقت النار بألوان جديدة ·

ـ أم ٠٠ أم ٠٠ الحقى يا أم

انتفضت بهانة على صوت ابنها المندفع ٠٠ انخلع قلبها ٠٠

ـ فيه ايه ياوله ٠

حاول الولد وهو يرتفع وينخفض أن يقول الخبر كله فى كلمة واحدة ٠

ـ ابويا جابوه العساكر متصاب ورأسه مربوطة بشاش

ـ يالهوى

انطلقت الكلمة من روحها مغموسة بالدم والفجيعة وهـــى تضرب صدرها بقسوة كأنه السبب ٠

***

كان الضابط قد صرخ فى الجنود يأمرهم بالصعود فورا الى « اللوارى » التى ستقلهم الى العباسية ٠٠ فرزتهم عيونه واحدا واحدا ، ثم سأل باهتمام وهو يلتفت حوله ٠٠

ـ فين محفوظ ٠٠ شوفوا لى محفوظ

سمع اجابة لا يعرف مصدرها بالتحديد : لسه ماوصلش

سأل أى أحد : ازاى ماوصلش ٠٠ عمره ما تأخر ٠

انتهى اليه تعليق من عسكرى يعرف طريقته فى الكلام :

ـ يوم من نفسه ٠٠ على الأقل علشان الشريطة

اشاح الضابط بوجهه ويده وهو يقول :

– شرايط ايه وبتاع ايه ·· احنا فاضـــيين ·· التلامذة عاملين دوشة جامدة ·

لمح الضابط محفوظا وهو ينط من اتوبيس النقل العام ·· طويل عريض ·· مضيء الوجه بابتسامة ·· رتب هندامه وشد حزامه وتوجه متبخترا ·· زعق الضابط :

– اتحرك يارايق ·· مفيش وقت

كانت الابتسامة لا تزال عالقة بملامحه وهو يقول

– صباح الخير ·

قال العسكرى أبو لسانين :

– الطلبة من النجمة بيهتفوا

اسرع محفوظ يقول :

– ضـــدى

قال الضابط الذى كان يدور حول نفسه :

– خذ الاثنين التلاقيح دول معاك ·· هم لسة فى روضـــه الأمن المركزى ·

قال أبو لسانين

– تعالى هنا جنبى يا أبو شريطة

ابتسم محفوظ على مضض وهو يقول :

– زنك دكـــر أنت وهو

قال احد الجنود :

ـ فرحنا لك ياريس

رد محفوظ بسرعة :

ـ باين فى عينيكم

ضحك الجميع ثم قال واحد منهم :

ـ النهاردة تقريبا آخر مظاهرة

علق آخـــر :

ـ يموت الزمار وصباعه بيلعب

عاد الأول يؤكـد :

ـ اخـر فصل فى المسرحية النهاردة

ساله البعض :

ـ والســـبب ؟

قال ـ اللى قبضنا عليهم امبارح

زعـق الضابط :

ـ انجر على اللورى انت وهو

نال محفوظ شهرة كبيرة فى تفريق المظاهرات ، أى مظاهرة مهما بلغ حجمها ودرجة هياجها ، كان قادرا على صدها والسيطرة عليها واصابة عدد كبير من رجالها واسر عدد أكبر ٠

اصبحت خبرته ومهارته العـــالية فى هذا النوع من العمـل البوليسي مضرب المثل وقد ساعدته ضخامته وخفة حركته وتوقـد

ذهنه وشجاعته ·· وهذا كله كوم وقناعته التى لاتهتز بأن المظاهرات تمثيليات كوم آخر ·

هو واثق تماما أن المتظاهرين فى كل انحاء العالم وخاصة فى مصر قبضـــوا مبالغ لقاء هتافاتهم التى لا يفهمون معناهـــا ولايقصدونها ، وأن وراءهم فئة لكل مرادها زعزعة النظام وتعويق الانتاج(٢) ·

على أية حال باستطاعة محفوظ أن يقتحم أية مظاهرة وأية معركة مدنية ويسيطر عليها ويبهر رؤساءه بقيادته للجنود ورفضه استعمال القنابل المسيلة للدموع الا فى المظاهرة الضـــخمة التى لاتستطيع سوى الدبابات السيطرة عليها ·· ســـاعتها يمكن ان يستخدم المسيلة ، وهو لا يرفضها رحمة بالشباب الغض والمضلل لكن التعجل باستخدامها اقرار بعجزه ·

تعود أن يبدأ بالاعتماد على نفسه ·· ونفسه تنوب عنهـــا « الصاعقة » ·· لابد أن تمسح عصاه الغليظة على الرؤوس والجباه، ولابد ان تشنف آذانها بما يصدر عن العظام المتكسرة من أنغام ··

ويأتى بعد الصاعقة دور قدمه التى تشبه كلبا أسود صغيرا وشرسا وهذه القدم الاسطورية قادرة على ان تقذف الشخص الذى تلحق به عدة امتار،وبعد أن ينكفىء على وجهه تتركه لمحفوظ شخصيا فيقفز عليه ويحمله من قفاه حملا ·· وهذا معنـــاه نهاية الثائر الصغير(٣) ·

---

(٢) الله يجازى الذى كان السبب فى غرس هـذه الفكرة اللعينة عن المظاهرات فى رأس محفوظ وللأسف لا هو ولا أنـا نعرف من الذى حفر عميقا جدا فى مخه وزرع هـذا الاعتقاد .. الله يسامحه مطرح ما راح . هو فى دار الحق ونحن فى دار الباطل مؤكد من زرعها مات من آلاف السنين .

(٣) ليس مرادنا من استعراض قدرات محفوظ هو الاعـلان بهدف اتساع رقعة الاستفادة منه فى فض المظـاهرات سواء الخاصـة أو العامة ولايمكن أن

ضرب محفوظ طلبة جامعة القاهرة فى عدة مناسبات وطلبة جامعة عين شمس والاسكندرية وعمال شـــبرا الخيمة وحلــوان والمحلة وعموم الشعب الخارج فى مظاهرات من الجامع الأزهر وميدان التحرير والحسين والسيدة وآدم ٠٠ واختير ايضا على رأس مجموعة لفرض مرشح الحكومة فى دائرة بنها ابان السبعينات أيام الديمقراطية وسافر الى أسيوط ومدن أخرى عدة مرات خصيصا لوقف نشاط الجماعات الاسلامية وغير الاسلامية(٤) ٠

ومحفوظ لا يعتبر نفسه موظفا ولا يتعامل مع المهام التى تطلب منه بوصفه عاملا رسميا يتقاضى لقاءها راتبا ، ويجب أن يحلله ٠ ولكنه يتعامل معها من منطلق الهواية والمزاج الشخصى فهو يجد فى فض المظاهرات والامساك بالمجرمين والعبث بالمتمردين من أى صنف ولون لذة شخصية وغالبا لا يجد مثيلها عند بهانة ولا فى حضن أولاده ٠

ولم يتعود محفوظ على العمل البوليسى الذى يقوم على مجرد الملاحظة أو الحوار وهو غير مقتنع أبدا بالعمل فى السكك الحديدية حارسا فى القطارات أو عســكرى فى ميدان ينظم المرور أو حتى صول فى قسم يكتب المحاضر ٠

قال له أحد الاثنين الجدد القادمين من روضة الأمن المركزى

تكون لنا مصلحة . ومع ذلك يمكن التأكد من قولنا بالرجوع اليه فى قريته التى يستجم فيها الآن بعد ما حدث له وهى كفر سندنهور مركز بنها قليوبية .

(٤) لا علم لنا بما أشيع أخيرا عن الطلب الذى تقدم به جيش الدفاع الاسرائيلى الى وزارة الداخليــة تطلب فيه اعارتها محفوظ ثلاثة أشــهر قابلة للتجديد للمساهمة فى فض الانتفاضــة الفلسطينية فى الضفة وغزة ونظن أن الطلب جاء متأخرا بعض الوقت وعلى أية حــال فقد وضــع الطلب الحكومــة فى موقف حرج ، أما الطلبات التى وصلت من بورما وباكستان والفلبين وكوريا الجنوبية وأمريكا اللاتينية فقد رفضتها الحكومة .

ـ بيقولوا انك شديد اكثر من اللازم ٠

تنهد محفوظ وهو يقسم بينه وبين نفسه انه انسان بسـيط وطيب ويحب الناس جدا جدا ٠٠ ثم قال :

ـ لو دققت شويه تلاقينى أرحم من الجراح ٠٠ صحيح أنا أحيانا باجرح لكن بداوى ٠٠ هو يداوى فرد ، وأنا اداوى محافظة بانقذ البلد من الثورة المضادة ووجع الدماغ فيرتاح الجميع ٠

سكت لحظة فتنبه هو وتلميذه الجديد الى دمدمـة محـرك اللورى المنطلق بهـم ، ودبيب العجـلات على الأرض الصـلبة والضجيج الذى تحدثه هيستيريا السيارات ٠

عاد تلميذ الروضة يساله وانضم اليه زميله ٠٠ تمهل محفوظ قبل ان يجيب على حزمة من الأسئلة ، ثم اخرج من جيبه ورقـة صفراء متهرئة واعطاها لاحدهما وقال له :

ـ اقرأ المكتوب هنا وانت تعرف حاجات مهمة ٠

بحذر أمسك العسكرى الأخضر الورقة المطوية وكأنها طرد سينفجر

وسـال :

ـ ايـه المكتوب فيها

قال محفوظ : افتحها ٠٠ مفيهاش اسرار ٠ حوار كان واحد صحفى عمله معايا ونشره ٠

اعاد العسكرى اليه الورقة وعيناه فى الأرض ٠

ـ آه ما بتعرفش تقرأ ٠٠ وانت

لم تبد على وجه الآخر اية اجابة ٠٠ ففهم انه مثل زميلـه حتى فى الجهل

ــ سيبنا من المقدمة ٠٠ أسمع يا سيدى

سألت الشاويش محفوظ ــ ألست تقف ضد الشعب لأن العمال أو الطلبة يتظاهرون من أجل مطالب شعبية مشروعة ؟

رد محفوظ فى ثقة : لاتصدق هذا ٠٠ هؤلاء الطلبة والعمال مجرد أدوات ٠٠ هناك زعماء كبار وبالتأكيد شيوعيون يدفعونهم لهذا ٠٠ والذين ينفذون المظاهرة زعماء أيضا ، ولكنهم يختصون فقط بالتنفيذ والتحكم فى المجاميع وتوجيهها ٠

توجد اذن ثلاث فئات تتعاون فى صنع المظاهرة ٠٠ مفكرون أو مخططون ٠٠ مقاولون انفار أو منفذون ٠٠ ثم وقود المظاهرة أو أدواتها ، والفئة الثالثة عادة تكون كالطوبجى الأعمى يهاجمون بلا وعى ويرددون هتافات محفوظة وفى أكثر الأحيان تكون الفئات المؤيدة للمظاهرة أربع فئات اذا اضفنا اليها الفئة الممولة ٠٠ داخلية أو خارجية ٠

ــ الممولة !

باندفاع قال محفوظ ــ نعم ٠٠ التى تنفق على المظاهرة

سألته ــ وهل تحتاج المظاهرة الى مصاريف

ــ طبعا ٠٠ المســألة تتطلب أجور للمتظاهــرين وانتقالات وربما يحتاجون الى معدات حسب الغرض من المظاهرة ٠

بدا محفوظ متحمسا وهو يتحدث ٠٠ يتكلم بلســانه وعينيه ويديه ورجليه وشاربه الكث ٠٠ كل عضلاته وأعصابه تشترك فى الحوار فقررت ان اخفف عنه فسألته : ماذا تفعل لو وجدت أولادك فى البيت ثائرين ٠٠ ابتسم ولمعت عيناه وقال : اطلب منهم أن يتركونى

سألته : هل فكرت ان تكتب مذكراتك(٥) ؟

أجاب بشرود : لا

سألته : هل تتذكر أخطر ٠٠

وقف اللورى فجأة وزعق الضابط :

ـ وصلنا يارجاله ٠٠ كله ينزل

طوى محفوظ الورقة بسرعة ودسها فى جيبه وهو يقفز الى الخارج ٠ قال الجندى الجديد لزميله :

ـ ربنا يستر

جلس آلاف الطلبة على الأرض أمام الجامعة يسدون الطريق من أول النفق لمسافة أكثر من مائة متر ٠٠ كان الموقف سيئا لأن هذا الطريق بالذات ممر لاكثر من مليون انسان يستخدمون آلاف السيارات الكبيرة والصغيرة العامة والملاكى والاجرة ٠

بعض الطلبة يحملون لافتات كتب عليها « الرأى الحر قبل التعليم » « حرروا الطلبة » « لاتكمموا الأفواه » ٠٠

نصف القاهرة يتعثر الآن فى الزحام والاضطراب ٠٠ كل الشوارع مغلقة رغم قيام ضباط المرور بتحويل السير الى طرق أخرى ٠٠

---

(٥) قرأنا منذ أيام فى احدى الصحف العربية خبرا يقول أن الصحفى المصرى سيد البركاوى ذهب الى كفر سندنهور وبدأ بالفعل كتابة مذكرات محفوظ البنهاوى رجل المظاهرات المعروف بعد ما جرى له وأن عمدة الكفر خصص مكانا لائقا لاقامة الصحفى التى يتوقع هو نفسه أن تمتد لعدة أسابيع ، ولم يكشف البركاوى عن اسم الناشر لكن المؤكد ان عدة صحف سوف تطلب منحها حق النشر فى حلقات . الأمر الذى استدرج مخاوف واستفزها بعنف حتى اصبحت مضطرا لابلاغ السلطات كى تأمر بفرض حراسة مشددة على محفوظ خشية أن يلقى مصرعه بعد عدة حلقات .

اطمأن الجنود الذين يرافقون محفوظا الى أن المظاهرة سلمية لكنهم بعد دقائق احسوا انها ليست سلمية على الاطلاق ٠٠ وهم أنفسهم الذين بدأوا الهجوم ٠٠ لم يكن هناك خيار ٠٠ كان لابد من ازاحة الطلبة من الطريق ٠٠ اصدر الضابط امره بضرب الطلبة بالعصى ٠

لم يعبأ الطلبة ولم يتحركوا ٠ تلقى البعض ضربات قاصمة فمالوا فى مواقعهم ٠٠ زادت الحالة سوءا ٠٠ تحاور محفوظ مع الضابط ٠٠ أصر الضابط بعد أن أحس بعناد الطلبة وتشبثهم على طلب المسيلة

تراجع الجنود واعيد تنظيم صفوفهم بحيث يستطيعون اغراق وحصار الطلبة بالقنابل ٠٠ الأوامر تتردد فى جهاز اللاسلكى الذى يحمله الضابط وينصت اليه باهتمام ٠٠ الأوامر تتوالى والزعيق والالحاح والتهديد ، وسيادة الوزير على التليفون والسيد المحافظ وسعادة الباشا اللواء مدير الأمن اما سعادة الباشا اللواء مساعد مدير الأمن فقد قال :

ــ دول حبة عيال ٠٠ ايه اللى جرالكم

وتكهرب الجو بدون سبب ثم ظهرت من بعيد سيارات فارهة حمراء وخضراء تصفر وتزغرد ٠٠ ولما توقفت بعنف ودقة هبط أقوام ذو مقامات عالية ٠٠ أشكالهم هى التى تعلن ذلك ٠٠ وجوه حمراء وملابس ثمينة وطريقة كلامهم توحى بأن شيئا ما فى حلوقهم ٠٠

وصلت سيارات أخرى وفيها ضباط برتب مخيفة ومشية عظيمة وضباط آخرون يهرولون وهو مايدل على أنهم ليسوا عظماء بما يكفى ٠٠ والأوامر تترى وتهبط من رتبة الى رتبة ٠٠ ثم تحملها الرتبة الأخيرة الى رتب أقل ٠٠ ثم الى رتبة أقل منها الى أن تصل الى محفوظ « ومحفوظ لا يتوانى ٠

استعد الجنود بالقنابل المسيلة واستعد العظماء لمشـــاهدة المذبحة ولكـــى يلاحظوا باعينهـــم ان الطلبة عرفوا تماما ان الله حق ٠

لكن الطلبة هبوا فجاة وانهالوا على الجميع بالحجارة ـ مطر غزير من الصخور المدببة ٠٠ الاذرع الى أقصى ماتستطيع تلقى والحجارة تطير وتطير ثم تسقط فوق الرؤوس وعلى الصدور وفى الأرض ٠

وشرع الجميع فى التحول بنظراتهم نحو السماء فى محاولة لاتقاء الحجارة لكن الرعب جمدهم وقد فوجئوا ان الحجارة تصـــل الى أبعد مكان ينتصب فيه ضابط ٠٠

امتلك بعض الضباط قدرا من الشجاعة ســـاعدهم على ان يحاولوا حماية الرتب الأعلى بصدورهم وفى الوقت نفسه يطلقون الأوامر بالضرب والسحق ٠

تساقطت القنابل من ايدى بعض الجنود لانهم ســقطوا ٠٠ حتى الذين يرتدون الخوذات وحاميـــات الوجوه المصـــنوعة من البلاستيك الشفاف ٠

ومع ذلك تعلقوا بالثقة والأمل ٠ ســـوف يســـيطرون على المظاهرة وسوف يتلقى هؤلاء الطلبة درسهم الأخير ٠٠

ـ اهجم ياعسكرى ٠٠ ارمى المســـيلة هناك فى الجنـب الورانى يمين ٠٠ فى الوسط كمان ٠٠ ارمى ٠٠

ثم سمع الضابط صوت ارتطام قريب وفوجىء بالدم ينفجر من رأس محفوظ ويندفع نحوه ، ومحفوظ يغطى وجهه بذراعه ثم يتداعى ٠

زعر الضباط زعرا حقيقيا حين وجدوا رجلهم الأول مقتحـم

المظاهرات ومحطم الثورة المضادة يســقط على الأرض والدماء تنبثق من كل مكان فيه ، وتهز قلوب الجميع ٠

تهاوى محفوظ وهو بين الوعى والغيبوبة ولم يعرف الذين حاولوا معاونته لماذا كان الدم أيضا يسيل من فمه ٠٠ لكنهم وجدوا جرحا غائرا فى مؤخرة رأسه وفى جبهته ٠

تطلعت عيناه الشاردتان الى السماء بهدوء ٠٠ وأمر الضابط بأن تحمله سيارته الى أقرب مستشفى ومنها الى بيته ٠

حملـــه الجنود وهو مستسلم هـــادىء ٠٠ مفتوح العينين ونظراته الى أعلى ساكنة لا تشى بأى معنى ٠٠ ماالذى جرى له ؟ حدثه الجنود فلم يرد ٠٠ حاولوا أن يسروا عنه فلم يبد عليه أنه يسمع أو يرى ٠ ضمدوا فى المستشفى جراحه وسمحوا له بالخروج ٠٠ عاونه الجنود على ركوب السيارة وانطلقوا به الى بلدته ، كان بالنسبة لهم الأب والزعيم والأخ الحنون ٠٠

انصبت نظراتهم جميعا عليه ٠٠ الجندى الذى يجلس الى جواره فى المقعد الخلفى ، والجندى الذى يجلس فى المقعد الامامى وحتى السائق ايضا كان ينتهز فرصة خلو الطريق من السيارات ليخطف نظرة اليه ٠٠ كان سكوته يوحى بالتوتر والقلق ٠

تساءل كل منهم بينه وبين نفسه عن عينه وصحته ٠٠ كان عدة اشخاص فى شخص واحد ٠٠ لم يتبق منهم الا هذا الحطام الساكن الذى يدنو من الموت ٠

ظل محتفظا بنظراته فى مستوى ثابت لا تحيد عنه ٠

؟ ٠٠ أى عالم آخر هو فيه الآن وأى حياة ٠٠ أية افكار يستطيع أن يرحل اليها ٠

اول ماخطر بباله ولده جلال ٠٠ حمدا لله لأن جلال لا يحب

المظاهرات ٠٠ جلال سريع الغضب حقا ولكن فى نفسه ٠٠ يثــور ويكتم ثورته ٠٠ تذكر بهانة ولم تعطه الحجارة فرصة كى تستقر فى رأسه صورة بهانة وهى تطالع المفاجأة ٠٠ كانت الحجارة مطرا غزيرا ٠٠ اسقطته وأسقطت عــددا كبيرا من الزمــلاء ٠٠ خالت عليهم حيلة الطلبة ٠٠ من ياترى وراءهم ٠ ؟

– الحجارة اللى وقعت على مش حجارة مقابل فلوس ٠٠ حجارة عفية مرمية علينا بقلب جامد مغلول ٠٠ يظهر النوبة دى مفيش وراهم حد ٠٠ يكونش لأنهــم عايزين يطلعوا زملاءهم ٠٠ جدعنه منهم برضه رغم اللى جرالى ٠٠

تنهـد

لمحه الجندى الذى يجلس الى جواره ٠٠ فرح ٠٠ لأن تنهيدة محفوظ معناها التفكير ٠٠ يعنى الحياة ٠٠ حاول أن يستحثه :

– ألف سلامة ياحضرة الصول ٠

لم يرد محفوظ ٠٠ وبقى هناك فى عالمه :

– الحكاية عايزة حساب تانى وتفكير تانى ٠٠

عرفت بهانة القصة ، واطمأنت عليه ٠٠ ساعدته فى خلع ملابسه ٠٠ تركته يرتاح وعادت الى الحاجة صفية حتى لايفقدوا عشاء دسما ٠٠ قالت له ٠

– ابعث لى العيال بعد المغرب ٠

ديسمبر ١٩٨٧

ابن بهــانة

عمل حسابه أن يصل الى المحطة قبل موعد قيام القطار بنحو ساعة ٠٠ اصبح على ثقة ان يوم الخميس هو بروفة حقيقية – مسرحها القطارات – ليوم الحشر ، وعلى ثقة أيضا من أن العائد الى بلده فى هذا اليوم ليس لديه مانع من التعلق بأى حديدة فى القطار ، فركوب قطار مزدحم ليس مشكلة والصعود على سطحه ليس مشكلة ، والاكتفاء بالتعلق بمقبض الباب لا يأباه أحد أو يخشاه ، والانحشار بين العربتين ليس أمرا صعبا

كل اطراف القطار صالحة لأن تحمل المشتاق الى ارض لـه فيها اهل وميلاد ٠٠ والناس فى بلادنا يتعودون بسرعة ويرضون بالموجود ٠

جلس جلال فى أول كرسى وجده خاليا فى احـدى عربات

الدرجة الثالثة وتنفس بارتياح ، فمنذ أسابيع لم يحظ بكرسى فى هذا اليوم المشهود · تسلل اليه شعور بالرضا لأنه وجد كرسيا ، وهذا معناه ان الزحام لن يسحقه ، ولن يضطر للشجار مع الضاغطين عليه ·

قد يميل عليه راكب ·· ليست مشكلة ، ويدخل بين فخذيه راكب ·· ليست مشكلة ·· وقد يحمل حقيبة ثقيلة سلمتها له راكبة لاتجد لها ولا للحقيبة مكانا فوق الأرفف أو تحت الاقدام ·· ليست مشكلة مع أنه متوجس منها لأنه لا يعرف ماذا بها ·

وليس من الذوق ان يرفض طفلا يريد والده ان ينقذه من فيضان البشر ، عليه ان يأخذه فورا وان يتزحزح له قليلا ويحشره بينه وبين جاره أو يبقيه على فخذيه اذا لم يكن عليهما شىء ··

عاش جلال كل هذه المواقف التى يطالعه بها يوم الخميس وتعود كغيره على قبولها ، وتعود الجميع بلا مضض حتى أصبحت القاعدة وغيرها هو الاستثناء ·

فاذا لاحظ أحد الوافدين على المحطة يوم الخميس ان الحركة عادية والاجساد فى أى ركن فيها غير ملتصقة ، فهذا معناه أن الحرب قامت أو هناك حظرا للتجول طيلة النهار ·

توافد الركاب وامتلأت الكراسى وبدأت مرحلة الوقوف ·· تسلل النهار دون ان يحس به أحد ·· باقى نصف ساعة على قيام القطار ·· سأل جلال أحد الركاب ·

ــ الجرار وصل ؟

تطلع الراكب الى العربة الكبيرة التى تمتد امامه كنفق له سقف نصف دائرى وقال :

ـ يظهر لسه ‧‧ لو كان وصل كانت اللمبات نورت ‧

تنبه جلال ولام نفسه ‧‧ كيف فاتت عليه هذه المعلومة البسيطة !

بعد لحظات نبت الضوء الشاحب فى اللمبات القليلة المتناثرة فكر ان يفتح كتابا كان فى يده ، يشغل به الوقت الباقى حتى يتحرك القطار ‧‧ تطلع أولا الى اللمبة التى فوق رأسه وكأنه يسألها عما اذا كان ضوءها يكفى أم لا ‧‧ وجدها بالكاد ترسل ضوءا رماديا مختنقا ‧

توالى قدوم الركاب وتعالت النداءات ‧‧ وبلغته دقات على سطح القطار فادرك ان الجنود وصلوا ، واندفعوا نحو اماكنهم المفضلة ‧‧ كان جلال يحسب لاقرب وقت انهم هاربون من الكمسارى ‧‧ اقسم له التهامى زميله ان هؤلاء الجنود معهم تذاكر ونقود ، لكنهم يفضلون الجلوس فى الخلاء بعيدا عن الزحام ، وحيث الهواء يصافح وجوههم والدنيا كلها مبسوطة أمامهم ‧‧ السماء والأرض والخضرة والبيوت المبعثرة وسط المزارع ‧‧ قضبان الحديد ‧‧ منظر القطارات القادمة وهى تكاد تدهم القطار الذى يمتطوه ‧‧ وكما يقول التهامى ‧

ـ يكفى شعورهم انهم فوق ظهر القطار ‧

دق قلب جلال رعبا وهو يرى لأول مرة الجنود وهم يجرون فوق العربات ويقفزون من عربة الى عربة ، مسافة تزيد عن المتر بلا أى تردد أو استعداد ، وهم على هذا الارتفاع والقطار بعزم مافيه يفر هاربا ‧

هبط الليل تماما وغطى كل شـــىء ‧‧ كان عليه ان يأخذ قطارا مبكرا حتى يتمكن من دخول البلد قبل الغروب ‧‧ فالطريق من المحطة الى البلد ترابى ومظلم ‧‧ وبرغم الطريق وظلامه فقد اتيح له ان يرى ابتسامة من القلب تولد فجأة فى عيون أمه وأبيه ‧‧

الفرح هنا فى جيبه ٠٠ وسوف تطير أمه من الفرح أما ابوه فانه يتخيله تماما وهو يشعر بالزهو لأن ولده رفع رأسه وسط الناس ٠

تحسس الخطاب الذى تسلمه اليوم فى جمعية رعاية الشباب ٠٠ الخطاب موجه لوالد جلال ٠٠ « الجمعية التى تسعى ضمن انشطتها الاجتماعية الى رعاية بعض النابهين من الطلاب واعانتهم على حل مشاكلهم وتحقيق آمالهم ، قررت منح نجلكم راتبا شهريا قدره ثلاثين جنيها طوال العام الدراسى الحالى ، نظرا لما يتميز به من التفوق وحسن الخلق ٠

تأمل والده فرآه محمر الوجه ، مضىء العينين ، أما أمه فكانت تغالب دمعها الفرحان ٠٠ سأله والده ٠

– ودى جمعية الحكومة

ابتسم جلال وقال :

– لا يابا ٠٠ دى جمعية كونها الاغنياء

فوجىء محفوظ ٠٠

– أغنيا فى مصر بيوزعوا فلوس على الغلابة ٠

اندفع جلال وقال : دا واجب عليهم يابا

قالت بهانة :

– ياحلاوة ياولاد ٠٠ ثلاثين جنيه كل شهر

تدخل محفوظ قائلا :

– السنه دى بس يامحروسة ٠

انطلق جلال خائفا على الفرحة التى عمت الدار :

– قالوا لى فى الجمعية لو فضلت شاطر كده ح اقبض كل

شهر · تنهد محفوظ وأراح رأسه على الجدار وطلب من بهانة كوبا من الشاى ··

قالت بهانة وهى تربت على فخذ محفوظ والفرحة تتألق فى وجهها : معلش يا أبو جلال ·· مفيش شربات ·

ازدحمت العربة ، وصعد الكثيرون الى رفوف الحقائب فوق رؤوس العباد

حرص جلال على ان يخلص نظراته من عيون الجالسين أمامه ·· الوجوه كلها تتقابل ، والنظرات تتلاقى وتصطدم ثم تفر الى النوافذ ·

وقعت نظراته على عشرات الركاب يجلسون على المقاعد الحجرية على الرصيف ويقفون فى انتظار تحرك القطار ، مفضلين البقاء خارجه بدلا من التبكير بدخول علبته التعسة ·

اطل جلال فى ساعته عدة مرات وحسب الدقائق المتبقية ثم زعق القطار وتحرك بنعومة حتى لم يكد يحس بحركته الا المتربصين له ، والذين لم تبرح عيونهم العلامات الثابتة على الرصيف لتسعد باكتشاف لحظة قيامه التى لا تقل عن ليلة القدر ·

أسرع كل الذين كانوا على الرصيف المكتظ يتدافعون الى القطار ويلقون بانفسهم فيه ·· من الأبواب ومن النوافذ ·· مئات البشر يستقلون سفينة نوح قبل أن ترحل وتتركهم للطوفان المكتسح ·· تكدس الكل فوق الكل ، ولم يعتذر أحد لأحد ·

استأذن جندى من جلال كى يصعد الى رف الحقائب ·· تلكأ قبل ان يوافق ثم اشار له بيده وافسح مكانا لقدم الجندى الذى سرعان ما قفز واصبح فوق الرف وأدلى ساقيه ·

راقبه جلال فى تبرم وحين استقر الجندى فى موضعه

استقرت فردتا حذائه الضخم فوق رأس جلال ٠٠ بلغ تبرم جلال حد السخط ٠٠ تمهل قليلا قبل أن يفكر فى أن يقول شيئا ٠٠ تأمل نظرات الجالسين حوله ٠٠ رفع رأسه وحدق فى الحذاء كأنه يفكر فى الموقف الذى يجمعهما ٠٠ هو والحذاء ٠

قاس المسافة بين رأسه والحذاء ٠٠ لم تكن هناك مسـافة تذكر بين عينيه التى تنظر الى أعلى والحذاء ٠

الحذاء كبير له ملامح فظة ٠٠ بدا الحذاء كأنه يفتح فمـه ويكشر عن انيابه ويهدد بعينيه ٠٠ طال تحديق جلال فى النعـل المتجهم الذى حفر فيه رقم ٧ أو ٨ أو W مكررا عدة مرات ٠

ما الذى يمكن أن يفعله ليختفى هذا الحـــذاء من الوجود ؟ ٠ المشكلة الوحيدة الآن فى العالم كله هى هذا الحذاء الذى يسكن بالضبط فوق رأسه ٠٠ كيف يبعده عنه ٠٠ عاد جلال ينظر محتشدا بالسخط فى عيون الجالسين ، كانوا يرمقونه والحذاء ٠٠ كانوا لاشك يفكرون فيه والحذاء ، كانوا لاشك يتصورونه دائما والحذاء ٠٠ كان هو فى عيونهم دائما والحذاء ٠٠

تصور انهم ينتظرون قراره ليثأر لكرامته ٠٠ عاد ينظر اليهم فهربت عيونهم الى لاشىء أحس أن الحذاء يهبط تدريجيا ويلمس رأسه ٠٠ اندلعت فى رأسه النار ٠٠ بدأ شعره يبيض ٠٠ شعرة ٠٠ شعرة ٠٠ هبط الحذاء ٠٠ نفذ من جلدة رأسه الى جمجمته ٠٠ حفر فيها حفرة تكفيه ٠٠ واصل هبوطه الى المخ ٠٠ ضغط ٠٠ اظلم الكون ولم يعد جلال يرى شيئا أو يسمع أو يجيب على كلمة ٠

غاص الحذاء فيما وراء عينيه تحت خديه وبلغ شدقيه وأطل من فمه لحظة ثم تابع الطريق الى رقبته واستقر فى صدره ٠٠ كل فرده فى جنب ٠ ضغط على رئتيه وقلبه وكبده ٠٠ فقع مرارته ٠٠ حاول جلال ان يتنفس أو يبتلع ريقه فلم يفلح ٠

شعر جلال بحرج الموقف وحساسيته ، أنه هو الذى سمح له بالصعود وكل الناس يصعدون وهل كان باستطاعته ان يمنعه ·· هذه هى الظـــروف والعدل المتعسف يسود ·· يحنى له النـــاس رؤوسهم ·· فهل من حل يزحزح الحذاء عن موضعه ؟

تطلع جلال الى الرف الطويل الذى يمتد بطول العربة ·· كان العشرات يحتلونه كطابق ثان ·· لم يجد فيه سنتيمترا واحدا يمكن أن يجبر الجندى على الانتقال اليه حتى يبتعد الحذاء

نظر الى الناس ·· كانوا كلهم متجهمين ·· والعربة كالنفق والاضاءة شـــاحبة والقطار يجـــرى ويدمدم ·· والحياة كلهـــا مستسلمة ·· لكن لا أحد فى مثل وجعه · تطلع من جديد الى قدره المعلق والمستعد للهبوط المفاجىء الدقيق على أم رأسه ·· الحذاء مسنون وشرس ومستبد فى سيطرته على الموقف ·

تطلـــع جلال الى وجـــه الجندى قبل أن يفكر فى الخطوة التالية ·· بدت ملامحه منمنمة وطيبة على عكس حذائه ·· لم يكن شكله كالآخرين من ذوى الخبرة بالعراك والســـفالة ·· محترفى التبجح والتحدث بالذراع قبل اللسان الوقح ·

قال له جلال :

ـ ابعد حذاءك

رد الجندى بادب :

ـ فيـــن ؟

تشجع جـــلال وقال :

ـ مش شـــغلى

تلفت حواليه ومط شفتيه ·· مسح الجندى العربة بنظراته · كانت كلها ناس فوق ناس ··

لم تلح له اية فرصة للحل ٠

صبر جلال لحظات ثم عاد يلكز الجندى :

ـ يللا يا دفعة ٠

ـ أروح فين ؟

ـ انــزل اقــف

ـ وقفت كتير

ـ ماهو كـــده عيب

اهتدى الجندى فجأة الى حل ربما يرضى جلال

ـ اقلعهــا ؟

قال جلال على الفور وكأنه يشتمه :

ـ اقلعها

قلع الجندى الفردتين ووضعهما على فخذيه ٠٠ اســـتراح جلال ٠٠ انزاح عن صدره هم العيون التى كانت ترقبه ٠ مئــات العيون كانت دون الناس جميعا ترقبه ٠٠ ترقبه وهو مهان ٠

استرخت أعصابه الهائجة وبدأ يفكر فى نفسه وامه وابيه والكلية والخطاب الرائع ٠٠ الخطاب الذى يحمل اجمل خبر قراه أو سمعه فى حياته ٠٠ مرتب شهرى وهو لم يزل فى السنة الأولى ٠٠ مايزال هناك ناس تحس بالناس وتفكر فيهم ٠

اندلعت فجأة فى أنفه رائحة كريهة بشكل قاتل ٠٠ لم يتصور الا انها رائحة تصدر من جثث الف كلب ماتت منذ ايام وتعفنت ٠٠ كم هى بشعة رائحة اللحم الحى بعد أن تخرج منه الروح وينفجر فيه الموت ٠

لم تكتف الرائحة بالوقوف أو النفاذ فى أنف جلال ، لكنها

تسللت الى عينيه ، فلم يعد يبصر ، والى شفتيه فكاد يبصق ، والى معدته فاوشك على التقيؤ ٠٠ شرع جسده كله ينتفض من التقزز ٠

حبس أنفاسه أطول مدة حتى كاد يختنق ، وتساءل عن سـر الرائحة رغم أن القطار يجرى بين المزارع ٠٠ ماالذى سيحدث فى الكون ٠٠ هل يوشك على نهاية مبتكرة وبشعة ٠٠

فكر فى النهوض والهرب ٠٠ لكن لا سـبيل ٠٠ اكتشف أن الرائحة التى كهربت الجو كله وسممته هى رائحة جوارب الجندى ٠٠ تنفس بصعوبة والم وقد تذكر أنه هو الذى طلب اليه ان يخلع الحذاء ٠

عاد الى العيون يستفتيها ٠٠ بعض العيون كانت تنظر فى بلاهة ورضا ٠٠ بعضها اسقطت الأهداب وراحت فى نـوم يبدو عميقا ٠٠

بعضها هربت الى الطريق الزراعى المظلم ، ترقب الاشباح التى تجرى فيه وتتبادل الاضواء الخاطفة والاختفاء ٠

لم يستطع ان يرفع رأسه الى الجوارب المشعة التى يمكن ان تستخدم كوسيلة من وسائل الحرب الكيمياوية ٠

ـ اشيخرب بيتك يابعيد ٠

أحس انه فى مفترق طريقين لا ثالـث لهما ٠٠ الجنون أو الموت ٠ يجب أن يفعل شيئا وبسرعة ٠٠ عيون الناس وملامحهم لا تدل على أن شيئا ما قد حدث وما زال يحدث ٠٠ أحس أنه وحيد فى بئر عفنة ، لابد من وسيلة ولو كانت الانتحار ، بديلا عن الموت البطيء ٠

فـكر أن يجذبه من قدميه ويلقيه فى الطريق ٠٠ النـافذة مفتوحة ٠٠ تقلبت احشاؤه بحثا عن مخرج ٠

ـ الله يخرب بيتك يابعيد

ظل جلال مسيطرا على نفسه يكتم انفاســـه ازاء الرائحــة الفظيعة ٠ رائحة الانسان حين تنفجر فيه البلادة وينعدم الاحساس ٠٠ آه ٠٠ الجواب ٠ الحرب الكيمياوية ٠٠ القطار سريع ٠٠ الدماء ٠٠ أمه ٠٠ أبوه ٠٠ الشرطة ٠٠ المستشفى ٠٠ السجن ٠

أفاق جلال على صوت جهورى ومدبب يصرخ :

ـ انت فاكر نفسك فى بيتكم !

تحول الى صاحب الصوت ، وجده وسط الزحام ٠٠ جندى طويل القامة منتصبا كنخلة وسط الحقول ٠٠ يصوب نظراته الى جندى الحرب الكيماوية ٠٠ على كتفه شريط أحمر عريض مطرز بكلمتى « الشرطة العسكرية » ٠

٠٠ على وجهه طبقة ثقيلة من المقت ٠٠

لم تعجب جلال طريقة كلامه ٠٠ دون كلمة أعاد الجندى الذى فوق الرف لبس الحذاء ٠٠ اختفت فجأة رائحة البشاعة ٠٠ تصور جلال ان هذه الرائحة يمكن أن يعذب بها المتهم كى يعترف ، والأسير حتى يكشف كل أسرار شعبه ٠

تنفس بعمق وملأ رئتيه بعطر المزارع ونسى الحذاء مؤقتا ٠٠ ٠٠ وبدأت نسمات الرضا تمسح على جبينــه برقـــة ونعومة ٠٠ ابتسمت ملامحه لأن محطة بنهـــا اقتربت وبعد قليل سيقرأ أبوه الخطاب ٠

مارس ١٩٨٥

عســـل الشـــمس

دفعته عن انفها فعاد وحط على جبهتها ، بصعوبة رفعت يدها وأبعدته ، حام وهبط على فمها ، صبرت عليه لحظات ، ثم نفخته فطار ٠٠ ٠٠ عاد فوقف على خدها العظمى ٠

تأكدت أخيرا أن الذباب لم يخلق الا لها ، وأنه لن يرحل عن وجهها ٠

لم يكن دفعها له احساسا خالصا برفض قذارته ، بقدر ما كان رفضا لوجوده الذى يعوق تأملاتها الكسولة فى مسافة بعيدة من الزمان ٠

قالت لها امها : لقد وضعتك يوم شنق زهران ٠

حاولت أن تتذكر ماذا قالت عن زهران ـ فلم تسعفها الذاكرة

وتخلت عنها تماما ، كما تعودت أن تفعل فى مناسبات عدة ، لقد غدا الماضى كصفحة محا الزمان ما بها من سطور ٠٠ ربما تتذكر موقفا من المواقف الحرجة ، كيوم طردها زوجها وأهله الى الشارع ، ولم تبرح الدار الا بصحبة أولادها الستة ، وأبت ان تذهـــب الى أهلها فى الجزيرة ٠

بقيت فى القرية تكافح مرفوعة الرأس وترعى أولادها ، تحت سمع وبصر زوجها وآله ، الى أن جاءوا هم بأنفسهم واجبروها على العودة فرضيت متشحة بالكبرياء ٠

وتذكر يوم معركة الجسر مع الهلالدة بسبب نزاع الـــرى الشهير ٠ لقد اشتركت فيها بنفسها ، ولم ترضخ لأمر زوجها بالعودة الى الدار الا بعد أن شجت بحجر ثلاثة رؤوس ٠

حتى هذه الذكريات المعدودة تسبح فى فضـــاء رمادى يلفه الضباب ٠٠ وهى مصرة على أن تمضى رغم ذلك فى محاولتها العنيدة للتذكر ٠

ولم تنتبه الى أنها ــ فى الســـنة الأخيرة بالذات ــ كلمــا اسرفت فى نبش الماضى ، فى محاولة للانتقال اليه ، طافت بهــا مخلوقات غير مرئية ، وخفقت باجنحتها لتســمح لها بالتعرف عليها فتقول :

ــ ارجعوا ٠٠ ليس الآن ٠٠ ارحلوا

كانت تعلم انهم رسل الموت ، يطلبون اليها الاستعداد ، فقد أن الآوان ، وهذه ميزة لا تتاح لكل الناس ٠٠ فها هو الموت يمنحها الفرصة باعلانه عن نفسه ٠

بدت خائفة وعاجزة ، لكنها لا تريد أن تستسلم ٠

عاد الذباب ، لوحت له بكفها النحيل ليبتعد ٠ بدا الذباب كانه يود لو يعرف فيما تفكر ٠

بلعها صراخ احفادها وشقاوتهم ·· كان الاولاد فى أول زمانها بلا صوت وبلا مطالب ولا خبل ·· انجبت أحد عشر ·· لم تحس باحدهم ·

اندفع حفيد هربا من أخيه فاصطدم بها ووقع عليها : لـم تتوجع رغم ما أصابها · رأت أن تبرح المكان لانه طريقهم وسوف يقعون عليها مرات ·

أحست بتألق النهار ·· اذن فقد تسلقت الشمس الجدران وابتعدت عن الأرض المحصورة ·

استدارت العجوز الى الحائط واعتمدت عليه ونهضـت ·· السحابات السوداء على عينيها لا تكاد تتيح لها الفرصة كى ترى الخطوط المحددة لمعالم الاشياء ·

تقدمها ذراعها ، يحوم فى الفضاء كقرن الاستشعار ، يكشف لها الطريق الى الحارة · اجتازت العتبة ، وأكملت ثلاث خطوات ثم جلست ·

هذا مقامها النهارى · هنا اقرب مكان الى الدنيا ·· تمضى خلاله فى دراسة صامتة لما يدور حولها ، رأسمالها الوحيد سمعها الذى يعمل بكفاءة ·· تميز هذه البنت من اختها ، وهذا الولد عن أخيه ، وتميز صوت الشيخ جوهرى وأقدام ولدها ، وتميز نبـاح كلبهم من كلب البندارى ·

منذ سنوات وهى تراقب نفسها تمضى فى طريق شـاحب الضوء · سرعان ما بدأ الظلام يكسوه ، ومع مضى الزمن الردىء تحيط بها العتمة كلفافة من خيوط العنكبوت ·

لا أحد يحنو عليها فى هذه الدنيا الا الشمس المهيبة الحنون وما عدا ذلك فالكل اعداؤها ويودون لو ترحل ·

تحس ان الشمس تحتضنها وتخلع عنها ارديتها المتعفنة ، وتمسح عظامها الرميمة ، وتداعب كساءها الجلدى ، وتسـلمها للذكريات ٠

لا يمكنها ان تسترجع طوفان الذكريات دون أدنى احساس بالمرارة أو الندم ،و هى ترى ان هذه السنوات ليست كالسـنوات السابقة ٠

طويلة تلك المسافة التى قطعتها مع الزمان ٠٠ كانت تعمل وتعمل ، حتى اذا ارادت ان تتسلى ، فانها تتسلى بشىء مفيد ٠٠ كانت دائما ذات فائدة ٠

زوجة أصغر أبنائها التى تعبث بوجهها طيلة النهار

قالت له :

ـ ان امك تضع خرزات المسبحة المقطوعة للبط

لم تدافع العجوز عن نفسها حين قال لها :

ـ أرجوك يا أمى ٠٠ لاتفعلى شيئا

وكأنها فقدت الاحسـاس بالظلم ، لم تهتم بأن تقول له انما وضعت للبط حبات الفول ٠

كانت متأكدة ان دفاعها غير ذى جدوى ، فابنها المنبهر بجمال زوجته لن يستمع الا لقولها ٠ ٠ هى متأكدة انها القت للبط حبات الفول ٠

ـ جيل مجنون ٠ هل يعقل ان القى للبط خرزات المسبحة !

صحيح ان رؤيتها بالعين مضطربة ، أو ربما معدومة لكنها تستطيع ان تتعرف على الاشياء وتحددها باللمس اذا امسكتها ٠

بيدها تستطيع ان تفرق بين رغيف صنع بقمـــح خالص ، ورغيف أضيف اليه قليل جدا من الذرة ٠

انتهت الى الاقتناع بأن هذه السنوات رديئة ، زيفها المزيفون وغشها التجار ٠٠ لم يكن لامرىء ان يفكر من قبـــل أن تمتد يده الى طقوس النبل والحياء ، لكنها الآن تمتد الى ما مدى ٠

اكتشفت ان الشمس ترحل عنها ويغطيها الظـــل والثلج ٠ بسطت راحتيها على الأرض ، واعتمدت عليهما ، تحركت قليلا فى اتجاه الشمس المزدهرة ٠٠ تحسست مداسها المتهرىء ، قربته منها ٠

قالت زوجة ابنها التى تلوك فى شدقها ـ فى خلاعة ـ فص اللادن ٠

ـ هل أحملك الى الشمس ياخالة ؟

كانت تحس انها بالقرب منها ، تتفرج عليها وهى تقبع وحيدة فى منفى الشيخوخة ، نسيتها وواصلت تأملاتها ٠٠ لقد عاشت طويلا وشرب جسدها كثيرا من عسل الشمس وكثيرا جـــدا من برودة الظل ٠٠ رحل الزوج مبكرا ومضت وحدها تربى أحد عشر رجلا وامرأة ٠٠ انتشروا فى الأرض لاتراهم ، الا الاصغر الذى يقيـــم معها بأولاده ٠ والكلمات بينهما قصيرة ومكررة وأغلب كلماته ليست كلماته ٠ تساءلت بينها وبين نفسها : كيف أصبح لها مثل هذا الولد المركوب ٠

بلغها من جديد صراخ الاولاد وضجتهم ٠٠ خرجوا من الدار مندفعين ، يتضاربون ويتقاذفون الأشياء ٠

فجأة انحنى أحدهم ومد يده الى نعل الجدة ، وقبل ان يقذف به أخاه ، قبضت عليه يد الجدة ، فوجىء الولد الذى يعرف انهـــا عمياء بيدها تكاد تسحق يده ٠ حاول أن يخلص يده بلا فائدة ٠٠

بهت الولد الذى كان يرى يدها طيلة النهـار ترتعش من شـــدة الضعف والهزال ، فكيف أصبحت الآن فى منتهى القوة والصلابة ، كأنها ليست لانسان ، انما لآلة حديدية صدرت الأوامـــر لها أن تقبض فقبضت ٠

سقط النعل وجرى الولد ٠

ابتهجت العجوز لهذا النصر المؤزر : تنهدت وابتلعت ريقها وجددت لعابها ٠ دست فى فمها سنة من القرنفل ٠ انشغل بهـــا لسانها ٠ خامرها احساس بالأمل فى استمرار الحياة ٠ دفعت عنها بكل حماس أوهام اليأس والاستسلام للنهاية المجهولة ٠

ورغم انها تفتقد الانسجام مع هذا العالم ، لكنها تود لو تبقى كى تتفرج عليه وهو ينتفض بالجنون ٠

مازال لها فى الدنيا عمر ، وما يزال مطلوبا منها ان تعيش ٠ يريد الله لها أن تشهد مزيدا من الاحداث فى هذه الحياة المتردية ٠

شردت قليلا وغلبها احساس بالاسى ٠ انتهى فجأة بالدمع والنشيج المحموم ٠٠

يوليو ١٩٨٠

الحضــــن

كانت العجوز تجلس فى صدر الردهة ، لترى من خلال الباب المفتوح كل العابرين ، وتطمئن على أن الدنيا مازالت دنيا ، وأنها مازالت فيها ، طالما تحس بالحركة تدب من حولها ، وطالما تـــرى النور يقتحم الدار ٠

خرجت بنت ابنها من حجرتهم متجهة الى الباب المفتوح ٠

قالت الجدة :

ـ هات القلة ياسناء ٠

ارتدت البنت عن الباب ٠ مضت الى صينية القلل ٠ رفعت بصعوبة من بينها قلة ٠٠٠ نقلت قدميها والقلة على بطنها تترجرج، قدمتها الى جدتها ، شربت ومسحت فم القلة وفمها ٠٠ عادت الطفلة

بالقلة الى الصينية ثم تابعت طريقها الى الشارع · مصمصت الجدة شفتيها وتلفتت حواليها ·· خرجت بنت ابنها الوسطى · اصطادتها الجدة ·

ـ هات المداس ياحنان ·

بعثرت البنت نظراتها سريعا فى أرض الردهة ·· لم تجده ·· انحنت تبحث تحت الأرائك · أخيرا وجدته ووضعته أمام الجدة مضت الطفلة الى الخارج · مصمصت الجدة شفتيها ·

كان ابنها يقيم معها ، وكانت حجرته مع زوجته وبناته الثلاث تطل على الحارة وهى التى كانت تخرج منها كل البنات ·· الواحدة تلو الأخرى ·

الأم فى الداخل تغسل للبنات رؤوسهن ، وتمشط شعورهن ·· كل بنت تنتهى زينتها تولى وجهها نحو الشارع ، حيث المرآة فى الخارج · فى عيون البنات الأخريات ······ تنسام الجدة فى الغرفة الجوانية · أما الغرفة الثالثة فقد خصصتها لابنها الأصغر يقيم فيها اذا جاء من بنى سويف فى أجازة ·

يتسلل أحيانا أبو البنات الى غرفة أخيه ، هربا من ضجة البنات وصراخ أمهن · خرجت البنت الصغرى ضئيلة الحجم ، قفزت كالعصفور · تجاوزت السنتين بقليل · مبتلة الشعر ، هربت من التمشيط ، المشط المتوحش يحاول كلما خاض فى شعرها أن ينتزع خصلات الشعر من الجذور ·· صرخت ولكن الأم ماضية لاتعبأ ، وحين تركت الأم شعرها لحظة لتمسك بزجاجة الجاز بيد وتسكب فى اليد الأخرى قطرات ، فرت الطفلة الى الخارج · نادتها الأم لكنها كانت قد قررت ألا تعود ، وماذا لو لم تعد ؟ ما الذى سيحدث ؟ ·· لمحتها الجدة فقالت لها :

ـ تعالى أضفر لك شعرك ··

حدقت فيها الصغيرة لحظة ·· عينا الصغيرة سوداوان ·· واسعتان جميلتان ·· هما أبرز مافيها ·· نظرت الجدة نظـرة استكشاف ·

كانت كل منهما تعمل للأخرى ألف حساب ، فالجدة صاحبة الحول والرأى فى البيت ويمكن أن توحى لابنها أن يضر هذه المتمردة العنيدة طويلة اللسان ·

مضت الصغيرة الى دورة المياه · مشت على أظافرهـا ·· وبأطراف أصابعها دفعت الترباس الصغير ·· فتح الباب ·· تقدمت خطوتين صغيرتين ·· رفعت ثيابها وقبضت بأصابعها العصفورية عليها · جلست وبالت ·

عادت تقفز مسرعة أمام الجدة ·· قالت الجدة :

ـ أقفلى الباب ··

وقفت الحفيدة عند باب حجرتهم ، وحدقت فيهـا ·· قالت الجدة :

ـ عودى فاقفلى الباب ·· سيدخل الى الرائحة الكريهـة والصراصير ·

أخيرا قالت الصغيرة ··

ـ لا أستطيع ·

قالت الجـــدة :

ـ اذن تعالى أضفر لك شعرك ·

ـ أمى التى تضفر لى ·

تتعثر الكلمات على شفتيها وبعضها ناقص والآخر ملتوى تفرح الجدة ويملأ صدرها حب كبير لهذه البنت العفريتة ·· لابد

أن تلجأ الجدة للمناورة ٠٠ ضحكت عليها بفمها المغلق ٠٠ حاولت أن تخفى فراغه المرعب :

ـ تعالى الى جوارى ٠٠ سأحضر لك الحلوى ٠

من جبروتها البنت قالت : لا أريد واختفت فجأة ٠٠ مصمصت الجدة شفتيها وظلت صورة العصفورة عالقة بعينيها تراها وهـى تقفز أمامها ، وكأنها تقفز داخل قلبها ، وتشتاق الى أن تعانقهـا وتقبلها ٠٠ أبو البنات دعاهن جميعا الى احترام الجدة احتراما يقرب من العبادة ، لكن الوحيدة التى خرقت هذا القانون هى الصغرى التى لاتعترف بأحد،مايتراءى لها تفعله ٠ صلبة الرأى عنيدة والجدة تهيم بهذا العناد ٠

جاء ابنها من الخارج ٠ انحنى على يدها وقبلها ٠ جلس الى جوارها ٠

ـ لابد أن تنام البنت معى ٠

ـ انها مزعجـــة ٠

ـ لن تزعجنى ٠

ـ تتقلب كثيرا فى الفراش وتضرب باليدين والقدمين ٠

ـ لابد أن تنام معى ٠

ـ ولـــم ؟

ـ لأنها لاتطيعنى ولابد أن تنام معى ٠

ـ ستنام معـــك ٠

ـ قلت لها أغلقى باب المرحاض فلم تفعل ٠

ـ ســأضربها ٠

ـ ايـــاك ٠ ٠٠٠٠٠

نظر الأب تجاه حجرته ، لمح الرأس الصغير يطل ويستمع · والعينين السوداوين تبحلقان فى ثقة ···

ـ تعالى يابنت ···

لم تتحرك ولم تهتز فيها شعرة ، طامن من غلـــواء رجولته وهيبته · قال فيما يشبه الرجاء ···

ـ تعالى ياحلوة ·· تعالى لأبيك ··

أسرعت العصفورة وارتمت فى الحضن المفتوح ، قال لها :

ـ أهكذا تغضبين الجدة ؟ ·· هيا اغلقـــى الباب ·· الا تشمين الرائحة ؟

أحست ــ رغم سنها ــ أنه استقبلها ليأمرها،اذنفهذا الحضن ليس لها ·· تسللت من بين أحضانه ، ووقفت على بعد خطوات ·· قال : ردى الباب ·· كما أمرتك الجدة ·· أسندت رأســـها على كتفها غير مبالية ·· أمسكت بيدها ظافر قدمها وثنت رجلهـــا · لمست مؤخرتها بالكعب ·

ـ إسمعى يابنت الكلام ··

لم تهتم · ذهب وأمره الى الله فاغلق الباب ، حتى لاتتضايق أمه من الرائحة ·· بعد العشاء نهض الابن وزوجته والبنات نصف نائمات ·

ـ هات يدك ياأمى حتى أصحبك الى حجرتك ·

سلمت الأم يدها ومضت أم البنات بهن الى الحجـــرة ·· تدفعهن أمامها بحنان ، توقفت الجدة فجأة فتوقف الموكب ··

ـ هات البنت تنام معى ·

تقدم الأب من الصغرى ليحملها ، صـــرخت البنت وتلوت ، خمشته فى وجهه ولكمته وعضته وأفلتت · رفضت النوم مع الجدة رفضا قاطعا ··

ساد صمت حرج ، خجلت أم البنات · صرخ الأب فى ابنته كى تعود · لكنها أسرعت الى السرير واختفت فيه ·

عاد الى أمه يصحبها الى غرفتها · ساعدها فى الصعود الى السرير · تمددت وغطاها ·· قالت له :

ـ غدا تحضر كيسا من الحلوى ·

ـ صعب أن تمضـــغى الحلوى ، ستعد لك أم سناء الارز باللبن ·

ـ انها ليست لى ياولد · انها للصغيرة ·

ضحك الابن ·

ـ لاتشغلى بالك ·

ـ لابد أن تطيعنى ·

ـ سأجبرها على طاعتك ·

ـ لن تطيعنى الا اذا نامت معى ·

ـ يكفى الحلوى كى تطيعك ·

ـ لابد من الحضن ·

فى المساء التالى انحنت الجدة على العنيدة ، همست فى أذنها :

ـ تعالى الى حجرتى لتأخذى الحلوى ·

ـ لاتوجد لديك حلوى ·· أنت تكذبين ·

تكذب ·· قالت الحفيدة أن الجدة تكذب · لطمتها الكلمـــة

بعنف ٠٠ لو قالها أبوها لتبرأت منه الى يوم القيامة ٠ كانت فى شبابها تسب العمدة نفسه ٠٠ فلا يملك ازاء شخصيتها وجبروتها الا أن ينحنى وينصرف ٠٠

ـ هات يدك ٠٠ وسوف ترين الحلوى بنفسك ٠٠

نطت العصفورة واقفة دون مساعدة ، نهضت العجوز معتمدة فقط على عصاها ٠ اندفعت فى حماس الى حجرتهـا ٠٠ اغلقتها ٠ فزعت الحفيدة ٠ حامت فى عينيها نظرات الشك ٠ عادت تجـرى الى الباب :

ـ لاتغلقيه ٠٠

أسرعت الجدة تخرج من صندوقها الكبير كيس الحلوى ٠ اطمأنت البنت ٠٠

ـ اصعدى الى السرير ٠

ـ لن اصعد ٠٠ اريد الحلوى ٠

ـ أصعدى أولا ٠٠

ـ الحلوى أولا ٠

بعد تردد قدمت الجدة الكيس مستسلمة وجسـدها ينتفض خشية أن تخطفه العصفورة وتطير ٠

احتضنت العصفورة الكيس ٠ فكرت فى الهرب ٠ خافت من عصا الجدة ٠ تحسست الكيس ٠٠ فتحته وأخرجت قطعتين ٠ دستهما فى فمها ٠

كل واحدة فى شدق ٠ استحلبتهما ٠ أعجبها الطعم ، السكر يتقطر فى فمها ٠ سعدت بالحلوى وتذكرت سناء وحنان ، لايذوقان ماتذوقه ٠ رضيت عن جدتها رضا منعها من الخيانة ٠

صعدت الى السرير حسب الاتفاق · تنفست الجدة كأنهـــا استردت الحياة · صعدت فى أثرها ·· نامت الى جوارها · مضت الصغيرة تتطلع الى السقف فى توجس ·

أنه سقف آخر غير سقف حجرتهم ، سقف عجوز بلا أسنان · من الممكن أن يقع فوقها فتموت · دارت عيناها فى الحجرة كلها · بدت معتمة أكثر من المعتاد ·· قالت الجدة ·

ـ هل تعجبك الحلوى ؟

هزت الصغيرة رأسها · امتصت قطعة السكر فتقطر فى فمها طعم لذيذ ، مدت الجدة ذراعها لتحتضن الحفيدة ، ارتد الى الداخل جسد الحفيدة فزعا من الذراع الساقط فوقها · وبهدوء رفعته عنها ·

تململت البنت · طاف حولها شبحا سناء وحنان ، فى مثل هذا الوقت كانت تلعب معهما على السرير قبل أن يدهمهن النوم · كانت تقوم لهما بدور الأم وهما بنتاها · تأخذهما معها الى السوق وتحمل هى السلة ·· الآن لن يستطيعا الخروج الى السوق ، انها أمهما وهما يحترمانها ولا يعصيان لها أمرا ، وعدتهما الليلة أن تصنع لهمـــا الفطير فى الفرن ·· تململت البنت ، تحسست كيس الحلوى ، رفعت رأسها ثم جذعها :

ـ الى أيـــن ؟

ـ الى مامـــا

ـ ستنامين معـــى ·

ـ أنام مع مامـــا

ـ الليلة فقط ·

ـ لا

ـ لقد أغلقت الباب ولن تخرجى ·

ـ ســـأخرج

ـ اذن هات الحلـــوى

ـ خذيهـــــــا

ـ ولن تخرجـــى

استعدت الطفلة للبكاء · أسرعت الجدة تربت على ظهرها ·

ـ ستخرجين ·· فقط هات حضنا ·

ركبت عليها الطفلة وقبلتها الجدة · همت الطفلة بالهبوط من السرير · أمسكتها الجدة ·· استعدت الطفلة للبكاء ··

ـ هل ستطيعنني ؟

هزت الحفيدة رأسها موافقة ·

ـ وتسمعين كلامى ؟

هزت الطفلة رأسها موافقة ·

نهضت الجدة · فتحت لها الباب · أسرعت العصفورة تجرى فى الظلام · فى اليوم التالى نادتها الجدة ·· تبعتها الى الغرفة · أخذت الحلوى وأعطتها حضنا ·

ديسمبر ١٩٨١

الحـــل الأخـــير

كنت مستغرقا فى القراءة حين وخذنى صوتها الغاضب :

ـ وبعدها معـــك ٠٠

نزعت عينى من الكتاب انتزاعا ٠٠ وقعت نظراتى على ذراعيها العاريتين ، كانتا تحملان كمية كبيرة من رغاوى الصابون ٠٠ تطلعت الى وجهها فبان لى الشرر المتطاير من عينيها ٠

ـ ماذا جـــرى ؟

حدقت فى وبدا أن الغيظ يكاد يخنقها ٠

ـ خذهم عنى أرجوك ٠٠ لا أستطيع أن أتم عملا ٠

تخابثت كعادتى حين لايسرنى التغيير الذى يطلبه أحد منى ٠

ـ آخذ من ؟

ـ الشياطين ٠٠ ابناءك ٠

ـ الا ترين أنى مشغول ؟

تنهــــدت ٠

ـ لست مشغولا ٠٠ أنت تقرأ ٠

ـ كتاب خطير ٠

مدت لى حبل صبرها المهترىء وقالت :

ـ عما يتحدث ان شاء الله ٠

ـ عن الجذور التاريخية لمشكلة الزنوج ٠

تلفتت فى كل اتجاه ، أعرف من حركتها هذه ، أنه قد فاض بها وتبحث عمن يجيرها ثم قالت وهى فى قمة السخط المكبوت :

ـ الطـــــم ٠

ويبدو أنها لم تستطع الاستمرار فى المناقشة ، فربما أصابها ضرر بالغ اذا هى أنصتت لآرائى ٠

مضت على عجل ، وهى لن تجد بالطبع من يجيرها منى ومن الشياطين أبنائى غير الله ٠

طافت بذهنى فى لحظة واحدة كل سنوات حياتها معى ، ملخصة ومجمعة كلها فى قرص من التفكير المكثف ٠٠ ابتلعته ٠٠ أدركت أنها فعلا لا تتوقف عن العمل المتواصل من أجلنا ٠ جهد هائل ومرهق مايحتاجه غسيل الملابس وطهو الطعام وترتيب الشقة وأكثر ارهاقا منه أن تطلب من الأولاد فى كل دقيقة التزام الصمت وترك الأشياء فى مواضعها والكف عن العبث ، والأولاد ـ على الأقل أولادى ـ لاتمل هذه المشاكسة ولو استمرت أياما ٠٠ اشفقت عليها ولكن ماذا أفعل لهم ٠٠ أريد أن أقرأ ٠٠ ان القراءة متعتى الوحيدة وقد تخليت

فى سبيلها عن كل المتع أو بالتحديد اغلبها ٠٠ وهذا الكتاب بالذات كنت أبحث عنه منذ زمن ، اخيرا وجدته ، على أن أرده لصاحبه المسافر بعد غد الى سويسرا ٠

المسألة ليست تافهة كما تتصورها أم الأولاد ، لم يعد العالم جزرا مستقلة كما كان قبل قرن من الزمان ٠ أصبح كلا واحدا ، ومشكلة من يعيش فى الفلبين لابد أن يهتم بها سكان البرازيل ، وأنا لا أدعوه أن يحارب من أجلها أو يهجر فراشه تفكيرا فيها ، ولكن لا اقل من متابعة اخبارها ٠٠ فلا باس من معرفة أصل الحكاية وأطراف الصراع الدائر والوانهم واهدافهم ، ووجهات النظر المختلفة لحل هذه القضية والعقبات التى تحول دون تحقيق السلام لهذه الشعوب ٠

ومشكلة الزنوج ليست جديدة وليست بعيدة تماما عنا ، ولكن اولادى يثيرون الشغب لأمهم بشكل يمنعها من القيام بمطالبهم الضرورية ٠٠ يتعين على اذن أن اتحرك لابعادهم عنها ٠ كيف استدرجهم حتى يتبعونى ٠٠ انا فى الحقيقة لا اريدهم أن يتبعونى ٠٠ اريدهم أن يناموا ، ولكنى على ثقة بانهم لن يناموا الا اذا عم الظلام الكون كله واطمأنوا الى أن كل أجهزة العالم قد توقفت وخاصة السيد المبجل التليفزيون ، وأن الناس جميعا قد لجأوا الى اسرتهم واغلقوا ابوابهم وساد الصمت ، بل هم لن يناموا اذا تحقق ذلك كله ٠٠ لن يناموا الا اذا تهدمت أجسادهم وانطبقت جفونهم رغما عنهم وتقطعت كل علاقة لهم بالحياة ٠٠ ومازال النهار فى ساعاته الأولى والشوط المتبقى اذن طويل حتى نأمل فى أن يقترب موعد الراحة ٠

ثلاثة أولاد اكبرهم تبلغ السابعة واصغرهم اتم عامه الثالث منذ شهرين ، لكنهم كفيلون ــ بلا فخر ــ أن يشعلوا النار فى عدة شقق وأن يغرقوا شارعا بأكمله ، وأن يكسروا أغلب محتويات فندق

من عدة طوابق واذا اتيح لهم بعض الوقت فقد يهشـــموا زجـاج ومصابيح عدة سيارات ‥ قررت أن أساهم بأى نصيب ، لكن الكتاب هام والوقت قصير ، وتركه جريمة ٠ خطرت لى أفكار ‥ دفعتها جميعا عن رأسى ، وبعد تردد رأيت أن أصحبهم الى حديقة عامة ‥ وأعلنت الخبر فهللوا فرحين ‥ أسرع أصغرهم فانبطح على الأرض وزحف تحت السرير وخرج حاملا الكرة ٠

سبقونى الى السلم ، وتأبطت كتابى سعيدا بالفكرة ‥ سأجلس تحت شجرة أقرأ وهم يجرون ويلعبون ‥ هناك جلست بالفعل تحت شجرة وانطلق الثلاثة يقذفون الكرة ‥ فراشات ملونة تتقافز أمامى فوق الخضرة والشمس تداعب أهدابهم ‥ نظرت الى فلذات كبدى مليا قبل أن أنشغل عنهم تماما بالكتاب ‥ من جديد فرحت برجاحة عقلى ، اذ التقطت هذه الفكرة التوفيقية التى تناسب الجميع ‥ قادر أنا اذن على أن أقوم بخدمة ولو بسيطة نحو العالم المسكين الذى يتعثر فى أمانيه ٠

قبل أن افتح الكتاب ، وقع الصغير ، فأسرع الى ضاحكا ‥
ــ لقد وقعت ياأبى ــ حسنا ‥ وبخفة ظله التى لم يأخذها عنــى قال :

ــ لماذا لم تقل لى ‥ « حاذر أن تقع » ٠

ــ أقول لك « حاذر أن تقع » فى الشارع أو على السلم ، أما هنا فلا بأس أن تقع ‥ هذه الحديقة للقفز والجرى والسقوط‥
تذكر الكرة فمضى عنى ٠ فتحت الكتاب واندفعت أقرأ ثم تبين لى أنى قرأت هذه السطور من قبل ٠ وأخيرا عثرت على السطر الذى وقفت عنده آخر مرة ‥ بدأت اتابع القراءة بعد أن تذكرت آخر فكرة جاءتنى الكبيرة تشكو لى الصغير :

ــ يستحوذ على الكرة ولا يعطيها أبدا لنا ‥ زعقت عليه ٠

ـ دع اختيك يلعبـان معـك ٠٠ الكرة لكم جميعا ٠٠ عدت الى القراءة ، ثم جاءتنى الوسـطى شبه باكية وقد احمر وجهها فبدت وردة تتألق بالنضرة لولا العيون المشتعلة بالحزن ـ أنظر ياأبى لقد اتسخ ثوبى ٠

ـ عندما تعودين الى البيت ستلبسين غيره ٠

كانت هذه الوسطى ولو أنها عنيدة لاتميل الى اللعب الجامح وتؤثر الهدوء ، والصمت والغناء ٠

جلست الى جوارى لحظات ثم مالت فوضعت رأسـها على فخذى ، رضيت بها أنيسة مادامت ساكنة ٠٠ بل شجعتها على البقاء بأن مددت يدى الى رأسها وبدأت أصابعى تعبث بشعرها الناعم ، وهى كالقطة تحب ذلك ٠

عدت ابحث عن السـطر الأخير ، وما أن وجدته حتى بدأت تغنى بصوت خفيض مقطعا من أغنية جميلة ٠٠ تابعـت القراءة ، ولكنها تدريجيا رفعت صوتها وبمرور الوقت أصبح عقبة فى سبيل استيعابى لما أقرأ ٠٠ فقدت التركيز ٠٠ نبهتها بدقات خفيفة فلـم تصمت ، قلت لها ذلك صراحة فسكنت ثم استدارت ناحيتى وأخذت الكتاب منى ٠٠ رجوتها ان تذهب لتلعب ٠ رفضت ٠ توسلت اليها ٠٠ أبت أن تبرح مكانها ، تمنيت فى هذه اللحظة من كل قلبى لو كانت مثل اخيها واختها تحب اللعب والشقاوة ٠٠ المهم أن تبتعد ٠٠

ـ لو ذهبت ولعبت ساحضر لك الحلوى ٠

ـ احضرها أولا ٠٠

ـ اذا ذهبـت ٠

ـ اياك أن تكذب على

ـ أنا أكذب !

ـ أقصد ألا تحضر الحلوى

ـ أنا اذا قلت كلمة فلابد أن أنفذها ٠٠ اطمئنى

ـ ألأنك كبير ؟

ـ هـــــــــه ٠٠

ـ لأنك كبير ٠٠ أليس كذلك ؟

ـ كل انسان يجب أن يفى بوعده ٠٠ هيا ٠٠ اذهبى ٠٠

ـ متى أكبر يا أبـــى ؟

ـ لماذا ؟

ـ كى أفعل ما أريـــد ٠٠

ـ هل أردت شيئا ولم تحصلى عليه ؟

ـ أظن ٠٠ أحيانا ٠٠

ـ مثل ٠٠

ـ الآن لا أدرى ٠٠ حين أتذكر شيئا سأقول لك ٠ ٠

ـ لاتشغلى بالك الآن ٠٠ هيا اذهبى ٠

بجهد شديد منعت نفسى من أن أقول لها ، انها الآن قادرة على تحقيق ونيل كل ماتبغى وكلما كبرت ستفقد جزءا من هذه القدرة وستحرم من بعض الحقوق ٠٠ صحيح أنها ستحصـــل على حقوق جديدة ولكنها تحمل فى طياتها مزيدا من الحرمان ٠٠

سعدت لأنها استدارت متجهة صوب أخويها دون أن تتذكر شيئا ٠٠ تركتنى هذه البنت الداهية أفكر فيها وفى المستقبل ٠٠ فقدت حماسى السابق للعودة الى الكتاب ٠٠ صدت نفسى ٠٠ لكنى تعودت أن أهرب من مثل هذه الموضوعات التى أعرف مسبقا أنها بلا نهاية أو اذا كانت تمضى خلال طريق مسدود ٠٠

سلمت نفسى من جديد لصفحات الكتاب ، ولكن الولد عـاد يشكو البنت الكبرى ٠٠ ملأنى السخط فانفجرت وألقيت الكتـاب بعيدا الى أقصى ما أستطيع ٠٠

ابتعدوا جميعا عنى ٠٠ ذهبوا الى آخر الحديقة ٠٠ استحسنت ثورتى وذهبت الى الكتاب وأبديت له أسفى ، فما فعلته لايقدم عليه مجنون ٠ عاودت القراءة ٠٠ قضيت لحظات ذهبية مع موضوعات الكتاب ، بهرتنى الأفكار وانتظامها وتسلسلها ودقة التحليل ووفرة المصادر والموضوعية فى العرض بلا مبالغة أو غرور ٠ كانت الرؤية أمام الكاتب واضحة ، وكان يسيرا على القارىء الاحساس بأن الكاتب خال تماما من العقد ٠٠ قطعت شـوطا طيبا قبل أن يعود الشياطين الثلاثة « بربطة المعلم » يشكو كل منهم الآخر ٠٠ وضعت الكتاب ، وكنت قد أصبحت جزءا منه وأصبح جزءا منى ٠٠ فكرت فى اجراء تطوير على وجودهم فى الحديقة ٠ لابد من تحقيق نظام يكفل استقرار اللعب بينهم حتى لايعودوا الى ازعاجى ٠٠ قلت :

ـ أنت تعطى الكرة لها وهى تعطيها لأختها ، وهذه تعطيها لك وهكذا ٠٠ بدأوا يلعبون ٠٠ من أول لعبة دب الخلاف ، فحين تأخرت الكرة على الصغير انقض على أخته فعضها وصرخت ٠٠ طيبت خاطرها ٠٠ أخذ الكرة وظلت فى حوذته لايعطيها للكبيرة ٠٠٠

كان يعتقد ان هو أعطاها لها فلن تعود اليه ٠٠ غضـبت البنتان وأنا لا أحتمل غضبهما الباكى لأن مظاهره تحطم القلوب ٠

لا أمل فى القراءة ٠٠ وضعت الكتاب ، لن يرتاحوا الا اذا قمت فلعبت معهم ٠٠ أذعت النبأ فهللوا فرحين ٠٠ قفزت بينهم وجريت ٠ جروا ورائى ٠٠ وقعت على الأرض ركبوا فوقى ٠٠ تخلصت منهم ونهضت وأنا اضحك ، وهم يضحكون سعداء باللعبة الجديدة ٠٠

قذفت الكرة وجريت ، جروا ورائى ٠٠ لحقوا بى ٠٠ تعثرت فيهم ٠٠ وقعت فركبونى ٠٠ وركبونى ٠

مارس ١٩٨٢

وقــائع المشــهد المثير

عندما علمت باختيار بلدتنا الصغيرة لينزل بها أعضاء المؤتمر الوافدون من كل دول العالم لبحث مستقبل مصر سنة ٢٠٠٠ ، كان صعبا أن أبقى خارج أسوار المناقشة ، فطرقت كل الأبواب محاولا الحصول على دعوة لحضور الجلسات الى أن حصلت عليها ·

لم أتصور أن يأتى المؤتمر بكامل هيئته العلمية والعالمية مع مراسلى الصحف ورجال الاعلام والقيادات السياسية والشعبية الى مدينتى دون أن أشارك ولو بالاستماع ·

ارتديت ملابسى وقبلت يد أمى وهبطت الدرج · ألقيت جسدى الى الطريق ·· سرت سيرا آليا دون أن أهتم كعادتى بالحفر والأرصفة المتهالكة وأكوام الأتربة ومخلفات المبانى وبحيرات المجارى والشوارع المنتهكة بأطماع التجار وفوضى الباعة والقذارة

كان على أن أمر على حسام بالفندق ٠٠ حسام صحفى متمرس وذكى ، ولكن اجابته لم تشف غليلى عندما سألته :

ـ لماذا وقع الاختيار على بلدتنا ليعقد فيها المؤتمر ؟

ـ لأن أكبر عالم مصرى فى القرن العشرين ولد بها منذ مائة عام ٠

ـ لا أظن أننا أوفياء لهذاالحد ، واستشـــعر أن وراء ذلك رقصة اعلامية ، ومثل هذا اللون من الرقص لم يعد يرضى أحدا لأنه رخيص ومفتعل ٠

ـ فما السر فى رأيك ؟

ـ لا أعرف ولكنى سمعت رأيا لمسئول كبير فى المدينة قاله فى جلسة خاصة ، هو أن المؤتمر يمثل ترضية لهذه البلدة التى تفتقر الى الخدمات والمشروعات ، هذه البلدة التى ما زالت تصبر على كل مابها من تخلف ، وسيكفيها طبعا أن تردد اسمها وكالات الأنباء العالمية ويذكرها الباحثون والعلماء على مدى الأيام ، لأنهم يسمون المؤتمر على اسم البلدة التى انعقد بها ، وهكذا تتحقق عدالة توزيع الأرزاق الحكومية ٠

على أنى انتهيت هذا الصباح الى رأى لا أظن هناك خلافا عليه وهو انهم اختاروا بلدتنا لأن بها أحدث قاعة للمؤتمرات والخطب ربما فى الشرق الأوسط كله ، قيل تكلفت بضعة ملايين من الجنيهات ، وهكذا أصبح لبلدنا مايميزها عن غيرها ، ورغم ظروفها الصعبة ووضعها المتردى فثمة ماتفخر به ٠

كان حسام ما يزال نائما

ازحت الستائر فاندفع النور الى الحجرة ٠ أطل فى ساعته وقال :

ـ عملت طيب ·

ـ هل طالت سهرتك مع الفرنسية ؟

ـ كلود لا تتركنى ·

ـ سيدة ظريفة ·

ـ لاتريد أن تضيع منها ثانية دون معرفة

ـ أرجو أن يكون التصاقها بك من أجل المعرفة فقط ·

ـ يارجل ·· أنا لا أصلح لشىء

ـ الآن فقط ·· ولكن بعد الحمام ستصبح صالحا لكل شىء ·
سمع نصيحتى ومضى الى الحمام ·

وقفت أتأمل المدينة التى كانت حتى وقت قريب تنتهى بالطريق السريع الممتد من القاهرة الى الاسكندرية ·

فى السنوات القليلة الماضية زحفت المبانى وتجاوزت الطريق واكتسحت فى طريقها المزارع ـ شيدت الدولة مبنى جديدا لمجلس المدينة به قاعة المؤتمرات ومبنى آخر للثقافة وفى ظهره مبنى مباحث أمن الدولة ·

ظهر حسام مختبىء الرأس فى المنشفة السماوية · وقف الى جوارى ثم كشف لى عن وجهه المضىء ·· تبادلنا تحية الصباح · أطل على المدينة ، فكـــرت أن أســـأله من جديد عن كلود العالمـــة الفرنسية · فجأة خلص رأسه من المنشفة وفغرفاه وهو ينظر الى السوق المجاور للفندق ·

ـ ما هذا ؟

ـ سوق البهائم ·

ــ أنا عندكم منذ عدة أيام ولم يكن موجودا ٠

ــ كان المكان الفسيح بالطبع موجودا ، لكنه كان فارغا واليوم الاثنين هو السوق ٠

ظل يحدق ٠ رأى كميات هائلة من الحيوانات ٠ بقر وجاموس ٠ حمير وجمال وأغنام ٠ ناس وخيام ٠ سيارات نقل ونصـــف نقل وملاكى وأجرة ٠ جمهور كبير يدخل ويخرج ٠ باعة الفول والطعمية والكشرى والمهلبية والأساور والعقود والأقراط البلاستيك والألمونيوم ٠٠ اركان الشاى واليانسون والحلبة والقرفة ٠٠ الخراف الصغيرة والماعز تجرى بلا قيود ، ولا حتى « سلب » وصبية السماسرة يعدون وراءها ٠

ــ لم اكن أتصور أن يكون فى بلدكـــم كل هذا الكـــم من الحيوانات ٠

ــ هذا يوم تجارتها ٠

ــ ولماذا نعانى اذن من أزمة لحوم !

ــ وهل تكفى كل هذه المواشى لاطعام شارع واحد من شوارع القاهرة ؟

ــ وكيف يتم البيع والشراء ولا مكان لقدم

ــ يفكر المسئولون فى نقل السوق كله من هذا المكان ، أو نقل جزء منه على الأقل الى الجانب الآخر من النيل ٠

ــ ولماذا لم يفكر المسئولون فى ذلك قبل أن يلتحم الجميـــع بالجميع ؟

ــ ليست مسألة قبل أو بعد ٠٠ انه طبع

وقف مشدوها يتأمل السوق ـ ويبدو أنها كانت المرة الأولى التى يرى فيها سوقا للبهائم ٠

شبعت نظراته من السوق فتحولت الى الطريق الذى كانت تتسابق عليه مئات السيارات ٠

قلت له : هيا بنا ٠٠ لابد أن الأعضاء قد مضوا

استدار وارتدى على عجل ملابسه ٠ علق على كتفه حقيبة مكورة وأسرع فتبعته ٠

فى الدور الأول ، كان الجميع يجلسون وقد انتهوا من فطورهم طلب لنا حسام كعكا وقهوة باللبن وسلم لشفتيه سيجارة ٠ طلعت علينا كلود بملامحها الحنون ٠ عبرت عن فرحها بالصباح المتألق ٠

نزلنا مع الضيوف ٠ كان علينا فقط أن نعبر الطريق العريض مشيا على الأقدام لنصل الى مبنى مجلس المدينة حيث قاعة المؤتمرات مسافة لاتزيد على مائة متر

تقدم العلماء والباحثون والخبراء ورجال الاعلام ، وما أن ساروا بضع خطوات حتى فوجئوا بعـدد هائل من الحمير يطلـع عليهم ، ولما حاولوا أن يتعرفوا على آخر هذا الزحف ولم يجدوا لـه آخر ، أسقط فى أيديهم واضطرب موكبهم ، والحمير تتدافع مضطرة نحوهم ٠

التف رجال المرور حولها ٠ يبسطون أيديهم ليحولوا بينها وبين اجتياح الضيوف ، وخشية الاندفاع نحو أرتال السيارات القادمة من الاسكندرية فى نزيف لا يتوقف ٠

لكن المسألة أفلتت اذ وجدت الحمير المدفوعة بتزايد الأعداد وبسبب الضرب النازل عليها من رجال السوق ثغرة بين رجـال المرور فنفذت منها ، فاذا هى تقطع الطريق على شلال السيارات ٠

شغلت الحمير كل المساحات · لم يجد بعض رجال الشــرطة حلا الا أن ينهالوا ضربا على الرجال الذين كانوا يصحبون رحلة الحمير ·

تراجع العلماء وقد بدت على ملامحهم علامات التقزز والحيرة والحمير تتقدم بجوانبها نحوهم · خطا الضيوف الى الخلف خطوات ثم تمهلوا يبحثون عن طريق · لم يكن ثمة طــريق ، كانت الحمير محتشدة فى غير نظام تتدافع وتتكدس ··

بيضاء وقليل منها الأشهب والقاتم ·· غلب اللون الناصع على المكان وألهب ضوء النهار ·

وقع بعض الضيوف المسنين وتعثر البعض وثار البعض ··

أغمضت عينى لحظات لأهرب من مشهد المصيبة ·· اننا على حافة الفاجعة ·

لم استطع الاختباء بقاع نفسى طويلا · جذبنى الحدث التعس رغم الاضطراب والارتباك والتداخل والضرب والجنون الذى شمل الجميع فقد بدت الحمير متداخلة وملتحمة وممتزجة · كائن واحد يتدحرج وتتلاطم أجزاؤه··كانت متعانقة فى رضا وصبر ·· تتراءى على ملامحها ظلال اليقين ، والعيون بحيرات ساكنة يتراقص على سطحها الأمل فى الفرج القريب ·

لم يكن ثمة مايزعجنا رغم ذلك الا زعيق السيارات وصراخها الحاد ·· العريض والعميق والمدوى · لعبة سهلة لدى السائقين · كانت آلات التنبيه توحى كأن الكون كلـــه يبرق ويرعد ويأز ويجأر ويتلوى ويئن ويثور ·· تصورت الدنيا كأن سكينا هائلا يمضى فى أحشائها ببطء وهى تتألم ألما خرافيا يفتت الكبد ·· ألما يزلزل الجبال ويهيج البحار ·

ليس فىالكون كله ازعاج يبلغ ازعاج سياراتنا ·· اســرعت

الى أحد الضباط أسأله ، وأنا أكابد ألما وأخفى خجلا مهينا ٠

– كيف ولماذا ؟

– قررت ادارة السوق نقل الحمير الى الجانب الآخـر من النيل ٠

– ألم يكن ذلك معروفا لديكم ٠

– كان معروفا ٠٠ لكن

زحفت علينا الحمير دون ارادة أحد ، وأبعدتنى عن الضابط الذى لم يكن يستحق الشفقة ،وأحاطت به كأنها تحميه منى . وعانى كثيرا فى سبيل التخلص من تلاحمها القوى ٠

آلات تنبيه السيارات مازالت تقطع فى لحمنا ولاتكتفى بالتنبيه

قرر الضباط الذين تزايد عددهم أن يدفعوا الحمير نحو الساحة الامامية للفندق ٠ كان الحل الانسب فعـلا للتخلص من أصـحاب السيارات المجانين ٠ أن يتراجع العلماء مؤقتا الى الفندق ويحل محلهم الحمير ويسمح للسيارات باستئناف السير ، فكل حمير الكون حتى لو نهقت جميعا فى وقت واحد لاتساوى زمارة سيارة واحدة ٠

صعد العلماء الى الدور الأول بالفندق ٠ قبعوا خلف واجهته الزجاجية وبدأوا يتطلعون فى انبهار ، غير متصورين أبدا أن يكون فى الدنيا هذا الكم الهائل من الحمير ، وقد أصبحت الساحة منتجعا لها ٠

كان المراسلون أول من أفاق من الصـــدمة الأولى للحـــدث المباغت ، وبدأ المصورون فى تسجيل المشهد المثير ٠

تناهى الى سمعى حوار بين الدكتورة كلود وحسام :

– لم أكن أعرف أنكم تقدسون الحمير ٠ لقد رأيت الجميـــع

يحرسون مسيرتها ، ويكاد البعض يحتضنها · أما الرجـــال فقد ضربهم الجنود بكل عنف ·

رد حسام وهو يحاول انتزاع صوته من الخجل الملح :

ـ اننا فقط نحنو عليها ·

ـ سمعت أنهم يفكرون فى سحب القداسة عن الأبقـــار فى الهند ·

أجابها حسام فى ثقة وقد تخلص من آثار الموقف المخزى :

ـ تتغير المقدسات بمرور الأيام

تكدست الحمير بعضها فوق بعض · الأعناق فوق البطون ، والسيقان فوق الظهور ·· تجاورت الحمير كقطع من الموج ارتمى منهكا أمام الشاطئ ·· لم يكن الصباح غريبا عنها ·

وقفت بعض الحمير وصبت بولها على الأرض كأنها تفرغ نهرا · تساقطت من المؤخرات كرات الفضلات ، ما أن مست الأرض حتى انفرطت وتصاعدت منها الأبخرة ·· شاعت فى الجو روائح غير محتملة · نهضت الحمير الواقفة ، أما التى كانت ترقد فى استرخاء فقد استثار بعضها التلاصق الجسدى والأنفاس والهدوء النسبى فهبت واقفة · وتقافزت الحمير فوق بعضها · علا الموج وهبط وأفلت حينا ثم استقر · تفتحت الشهوات واستنفرت أعصـــاب الجميـــع وتحمس المصورون لمستقبلهم الفنى والمالى ، والعلماء مشدوهون بروعة المنظر ، سعداء بالموقع الممتاز الذى أتاح لهم رؤية الطبيعة وهى تأتى اليهم وترقد تحت أقدامهم وتلعب أدورا فريدة قالت كلود وهى تكاد تطير :

ـ انها تعبر عن ذواتها فى عفوية وبلا عقد ، ولاشـــك أن

افكارها عن المجتمع السعيد غاية فى البســـاطة ٠٠ اه ياللجمـال والثراء ٠ ستظل افريقيا لقرون قادمة ميدانا رائعا للبحث والالهام ٠

لاحظت أن كثيرا من العلماء بدأوا يدونون أشياء فى أوراقهم ويتحدثون ويصورون وقد بدا أنهم نسوا المؤتمر وتوصـــياته التى يتعين عليهم اعلانها فى الجلسة الختامية ٠

سألنى حسام فى غير قليل من الغيظ :

ـ هل هذا الفندق ملك لمجلس المدينة ؟

ـ لا ٠٠ بل هو ملك لأحد المقاولين

ـ ولماذا بناه هنا ؟

ـ قل لماذا بناه أصلا ؟

ـ وما العجب فى هذا ؟

ـ لأن اغنياء بلدنا ينفقون أموالهم فقط على النساء وزيادة النسل والاقبال على الطعام لدرجة انقطاع النفس وتتكفـــل أماكن اللهو بابتلاع الباقى ٠

ـ وهذا الفندق

ـ أشار رئيس مجلس المدينة على أحدهم ببنائه ووعد بتقديم التسهيلات بل والزبائن أيضا فتشجع وبناه

ـ ولكن الموقع غير مناسب

ـ مناسب جدا ٠٠ فسينقل سوق البهائم من هنا ان عاجلا أو أجلا ، ويقام مكانه ملعب أو حديقة ، وهكذا يطل الفندق من جهة على النيل ومن جهة أخرى على الملعب أو الحديقة وأمامه السيارات تمرق على الطريق السريع ٠

عدنا الى الصمت ، لا نتفرج مثلهم على الحمير ، وانما نرقبهم هم ٠٠ نبحث عن ملامحنا فى عيونهم وقلوبنا تدق بعنف ٠

مالت كلود على حسام أكثر من اللازم وقالت :

ـ هل يهتم أهل هذه المدينة باجراء سباقات لها ؟

ـ لا

ـ أتصور أن بالامكان الرسم على بطونهـــا ، فهذه الحمير المتألقة متناسقة التكوين ، عريضة البطن ٠٠ أنظر ٠٠ أنظر هسام

نظرت أنا وحسام وكان الجميع يتهللون فرحا عندما وقعت أبصارهم على جحش صغير ٠ تصور البعض لحظة أنه يرنو اليهم فحيوه ، ولكنه سرعان ما مضى يقفز ، يفر ولا يستقر ٠ حاصره ثلاثة من الضباط لكنه أفلت من بين أيديهم وجـــرى يوزع البراءة الجميلة ٠٠ تفادى البعض واصطدم بالبعض سعيدا بالنزق الجرىء وبالرياح وبالمكان المباح ٠

فتح باب الفندق وتقدمت سيدة وفى أثرها عجوز يحمل آلة تصوير ٠ على حذر خطت السيدة نحو الحمير الراقدة ٠ مـــرت بيدها على جسد وديع ٠ حاولت أن تجلس عليه ٠ نهض الحمار فى عجلة ٠ حاولت أن تجلس على آخر ، بينما رجلها يستعد للتصوير ، هب الحمار ٠٠ تأملتها جميعا ٠٠ أعجبها واحد أشهب متألق الصبا ٠ تقدمت منه ٠٠ واجهته ٠ أطلت فى عينيه ، تأملت الرضا المزدهر فى المقلتين ٠ بدا عليها أنها تفهم لغته ٠ دعته أن يطل فى عينيها ٠ دعته الى ذلك بالحاح ، وكأنها تبحث عمن يستمع اليها ويفهمهـــا ٠٠ عانقته ٠ دست صدرها فى جبهته ٠٠ والتقط العجوز الأشيب صورا لها وهى تحاول أن تنفذ فى الحمار المستسلم ٠

قالت : كم هى طيعة ٠٠ لاتفكر فى العصيان أو الفرار ٠

قالت العجوز : ولا فى الانتحار ٠

نظرت اليه السيدة شذرا وكأنها تلومه على التلميح المستفز ٠

اخيرا أوقف رجال المرور أرتال السيارات وأمروا رجال السوق باصطحاب الحمير بعيدا عن طريق العلماء ٠

تقدم الرعاة ، فهبت الحمير جميعا وقد أدركت أوان الرحيل ٠٠ تحرك الكائن الواحد الضخم المتلاطم ٠٠ أكوام من الفضة تعكس أشعة الشمس وتتقلب تحتها ٠

مضت الحمير عبر الجسـر الى الجانب الآخر من النيل ٠٠ تتعثر بينها الخطوات فى الزحام الخجل دون أن تلوى أعناقها ، وفى مؤخرة الزحف الطويـل ، لوحظ الجحش الغرير يبحث بين الأجساد الملتحمة عن سبيل ٠

هبط العلماء من موقعهم الزجاجـى الى الأرض المبرقشـة بالبقايا ٠٠ بدت الأرض كجسد ممتلىء بالقروح ٠

اتخذوا طرقا متعرجة فى محاولة لتفادى الفضلات اللعينة ٠٠ كتموا أنفاسهم وهم يعبرون المجال الجوى المسموم ٠ دون أن تفلح مشاعرهم الودية نحو المخلوقات البدائية فى محو الشعور بالتقزز

ومن المؤكد أنهم عبروا الطريق السريع الى قاعة المؤتمر تملأ نفوسهم صور الحمير المسالمة ٠

طالعتنا وجوه المستقبلين أمام القاعة بملامح منهكة وقلقةتريد أن تنفذ الى الأعماق وتمحو الأثر ٠

سألت حسام : كيف ستنقل هذه الصورة الى الجريدة ؟

قال فى لا مبالاة : لن أنقل شيئا ٠

قلت فى دهشة اقرب الى الفزع :

– ولماذا لاتتذكرها ولو بشكل عابر

تنهد وقال فى ألم :

– أنسيت أنى على خلاف مع سكرتير التحرير بسبب نادية ، وربما لاينشر حرفا مما ساكتبه عن المؤتمر ٠

أكتوبر ١٩٨٣

فــرح التراب

امتدت يدى الى المعزين تشكر سعيهم ٠٠ يتمتمون بالكلمات ولا أسمع ، يحدقون فى ولا أراهم ٠

هذا العام حصد الموت كثرة من العائلة ٠٠ عمر العمدة وخالتى بهانة وأختى ثريا وعدد موجع من الأطفال ٠٠ وفى هذا الفجر أمى ٠٠ فى هذا الفجر ٠٠ أمى

بعد أن تنتهى سهرة الليل مع الأحياء ويهم بالتخلى عن عرشه للنهار ٠٠ يموت من يموت ٠

كثرة رحلوا من العائلة ولكنها اليوم أمى ٠٠ أمى التى شافت المر وظلت تبتسم فى صمت وثقة ٠ لاتفكر الا فى الغد وبعد الغد ٠ لازالت تقول لى وسوف تقول ، وليتنى أسمع ٠٠ سأسمع ٠٠ ليتنى أسمع ٠

ـ لا تنظر وراءك ٠٠ هذا هو قانون الحياة ٠

لعينيها لغة فريدة ·· أراهما بوضوح ·· تتعلق بهما غيمة متوترة يداها المعروقتان تمتدان نحوى ·· طرزتهما الأيام ببعض النقوش ·· طلعت على الجموع المنتظرة وخلفها طريق طويل ·

مضت ·· وهذا الطريق بذيلها يمضى ·

الأولاد يتقافزون فى ساحة الدار ·· يتسلقون الأشجار · كثرة رحلوا من العائلة ·· عبروا السياج المنخفض ·· لم تكن فى رياض عيونهم علامات الرحيل ·· تفجر رحيلهم بين أيدينا وفى الفجر أمى ··

قلت لها مرة ورأسى على فخذها تعبث فى شعرى بيد تعرف الهدف :

ـ أتمنى أن أكون سعيدا

قالت : لا تطلب كثيرا من الحاجات ، ولا تبث لأحد همك ·

تعودنا أن نجدها فى كل مكان بالدار ·· وبالدوار وبالبلد مع أنها غالبا ماتربض فى ركنها ساكنة ، أو تتنقل بلا حس ·· تشفق على الملائكة ·

ذهبت وهى وحدها الجميع ·· وخلت الدار ·

جاءنى ولدى الصغير وحط فى حجرى ·· تنهدت فى صدره ·· قلت له :

ـ ذهبت جدتك ·

قال بلا اهتمام : الى أين ؟

هززت رأسى فى شبه يأس ·· قال :

ـ هل رأيت كراستى ؟

ولم ينتظر اجابتى ٠٠ هب من مكانه ، وقفز صوب الدار ٠٠ لم يغب غير لحظة ٠٠ طار عائدا وقال :

ــ انظر ٠٠ أخذت نجمة وعشرة على عشرة
ربت على ظهره سعيدا بشطارته ٠٠ قال :
ــ الأبلة خلت كل العيال صفقوا لى ٠
فرت الدمعة من عينى وسقطت على الكراسة
فرت أمى ٠٠ وسقطت فى البئر ٠

أسرعت أمسح دمعتى من كراسة الولد ، وأبعدها عن النجمة والعشرة على عشرة ٠

الأولاد يتسلقون التوتة

هزوا الفرع ٠٠ سقط التوت بوفرة غريبة ٠٠ تلونت الأرض بالثمر ٠٠ فرح التراب بالثمر ٠٠ سكنه التراب ٠٠ هبط بعض الأولاد قفزا من فوق الأفرع العالية ٠

خفق قلبى لهم ٠ هللوا وداسوا على الثمر ثم جروا وعبروا السور ٠٠ صممت أن أزجرهم ــ لم أستطع ٠٠ تعودوا أن يلعبوا بيننا فى الدوار الفسيح ٠٠ يضجون بالصخب ويجرون ٠٠ لايتوقفون ولا يملون ٠

كثرة رحلوا من العائلة ٠٠ لماذا يتفجر من تحت أقدامنا الرحيل ولايجيىء من البعيد ٠٠ هاهو شبح الرحيل يمضى أمامى عملاقا مهيبا أسود البشرة واليدين ٠ له عينان حمراوان ونظرة قاسية ٠٠ عليه عباءة سوداء يبسطها فتطير وتلف الكون ٠٠ يعم الدنيا ظلام متوحش ويسحق القلوب والعظام ــ يمضى فوقها بلا خشوع ٠٠ ثم يلم العباءة فى قبضته ويختفى ٠

دار الأولاد حولى يتسابقون والضحكات تجلجل فى الدوار الفسيح ٠

مايو ١٩٨٤

ليــلة يهوديــة

عدت الى الفندق مجهدا من طول المسير وامعان النظر فى كل أثر أو جدار من جدران الفاتيكان ، حتى دهمنى الصداع ٠٠ قررت أن أتناول غذائى أولا ثم أنام ٠

فى ردهة الفندق فوجئت بكل النزلاء بعضهم فوق بعض فى كومة واحدة ، أو هى على وجه الدقة دائرة بشرية ولكنها بدورين ٠ تذكرت الحاوى فى بلدنا حين كان ببراعة ولباقة يعد قبل أن يمارس ألعابه سورا جماهيريا كثيفا على شكل دائرة ، ثم يبدأ العمل محاولا أن يشرك الناس فيما يفعل ، وهو فى كل حركاته يمسك بهم ولايتركهم لأنفسهم لحظة والا انفضوا من حوله ـ وخلال ذلك كله يحصل على انبهارهم وتصفيقهم ٠٠ وأموالهم ٠

لم أستطع أن أرى شيئا مما يجذبهم لأنهم كانوا جميعا طوال

القامة ، على الأقل الذين احتلوا الصفوف الخلفية ·· دفست رأسى فيما بينهم · فلم أر شيئا من كثـــافة الزحـــام · اعتذرت للبعض وواصلت زحفى الى أن طالعنى وجه السادات ·· عاجلنى السؤال ، وما الداعى أن يتجمع حوله كل هؤلاء الناس ·· كان الســـادات يلبس حلة بيضاء مرصعة بكل نياشين وأوسمة العظماء ·· والقمر الصناعى ينقل كل مايجرى الى العالم أجمع ·

حينما تبتعد الكاميرا عن وجهه ، يستطيع المرء أن يميزه بوجهه المعتم الذى يشغل المسافة بين غطاء رأس ضباط البحرية والحلة البيضاء وتحتها الحذاء الأبيض ·

الى جواره بدا ضيفه الوحيد الطفل الايرانى ولد الشاه ··

تذكرت أن اليوم هو الخامس من يونيو ١٩٧٥ ·· اســـتقل السادات وضيفه الصغير لنشا بحريا بمناسبة اعادة افتتاح القناة ومن حوله عشرات الزوارق والسفن الصغيرة واللنشـــات تحمـل الجماهير ·· تتزين بالأعلام والورود ولا فتات تهتف بعبارات التهنئة والترحيب ·

كان الجميع يزغردون فى ليلة زفاف القناة ، وكانت هى تتألق بصباها المديد ومجدها العائد ·

مهرجان كبير يستحق أن يتفرج عليه كل انسان ، الا أننى لم أجد فيه مايبهر ، فالطعام الآن والراحة أجدى

لم أجد أحدا فى المطعم ولا حتى الطهاة ، خرجت وتناولت طعامى فى الخارج على عجل · ولم أتوقف فى الطريق الا لاطلالة ، على الصحف والمجلات ، وراعنى أنها جميعا تعلق صورة السادات على صدرها ·

عدت الى الفندق وتمددت على السرير فىانتظار النوم الذى يتعين عليه أن يداهمنى بلا رحمة ·

منذ أن وصلت الى روما لم يقع بصرى على امرأة عادية ، أو غير ملفتة للنظر • كلهن جميلات وأكثرهن باهرات الجمال ، قطع من النور والحيوية والتألق •• شموس صغيرة تتسكع فى الطرقات وتتنقل بين الأركان وتقف على محطات الترام •

كل الشوارع تحتشد بهذه المخلوقات التى ليست غير بطاقات دعوة للحب والفتنة ، بل انها دعوة للتفكير من جديد فى الاعتقاد الدينى السائد أن الانسان مخلوق من طين ، وهل هو طين واحد خلق منه كل البشر •

لم أعد استطيع السير بشكل منتظم نحو هدفى •• تحولت الى انسان آلى لايهمه سوى الجمال ويحرص على أن يطل فى كل وجوه النســـاء •• تجذبنى الجميلة الى هذا الطريق فأمضـــى ، وسرعان ما تأخذنى الأجمل الى طريق آخر •

سألت نفسى عن سر تبلد الرجال الايطاليين فى هذه الأيام •• كيف يستطيعون التماسك بهذا الشكل الزائد عن الحد ازاء البهاء الذى يميز بنات روما ، كيف لايصابون بالجنون أو حتى بالفشـــل والتدهور •

كان أجدادهم من الحرارة والصدق مع النفس بحيث أفضى الأمر فى عهدهم الى سقوط الامبراطورية الرومانية ، ولعل نيرون نفسه أقدم على حرق روما لهذا السبب •• الحق أن الرجال لم يكونوا كلهم متبلدين لأن الشوارع كانت مطرزة بالفتية والفتيات ، يتلاثمون فى الأركان وعلى الحوائط وفى كل وسائل المواصلات وفى المقاهى والحدائق والميادين •• وفى المتاحف ، ومثل ذلك فى البحر حيث الزوارق وتحت الجسور •• ومؤكد أن مثله يجرى أيضا فى الجو •

راجعت نفسى فيما أراه •• ألست مبالغا فى نظرتى ؟ ••

اليس قدومي من ليبيا مباشرة الى روما بعد فترة عمل صـــعبة فى صحاريها تجاوزت عاما ونصف عام هو السبب فى انبهارى ؟

اليس انتقالى من صحراء لازرع فيها ولانساء وحياة لاتعرف الا الرمال ، الى عالم مزدهر بالجمال والحب مفعم بالربيع مبررا قويا لدهشتى ؟

لقد رأيت عددا قليلا من النساء فى بلاد البترول ، لكنهن جئن فى الأغلب من بعض الدول العربية والأسيوية مع أزواجهن أو بدونهم طلبا للمال اللعنة ٠٠ وهل تسافر الجميلات سعيا وراء المال !

جئت الى هنا لقضاء ثلاثة أيام ولابد أنها ستمتد لعشرة ، ويبدو أن الأوضاع سوف تنزع عنى جديتى السقيمة ، ولابد أنى مضطر أن أبحلق فى كل شىء ،وليس فقط فى لمسات الفنانين العظام التى تحتشد بها المتاحف والكنائس ٠٠ على أن أرحب بكل شىء فيه اكتشـــاف للحياة ، التى عشت طويلا أتحاشاهـا وأتجنب اغراءاتهـــا مكتفيا بالكتب ٠

آمنت مبدأيا بأنى لست ملكا لنفسى تماما ٠٠ اننى ملك للظروف بدرجة كبيرة ٠

***

لما صحوت من نومى لم أشأ أن أذهب الى أى مكان غير المقهى الذى رأيته فى ميدان فينسيا ٠٠ يمكننى من خلال موقعه الفريد أن أرقب الجميع ٠

الدنيا صيف ٠٠ المقهى مفتوح على الميدان ٠٠ الكراسى نصف شاغرة الشمس حريصة على أن تبعث بأرق أشعتها وهى توشك على الرحيل ـ نسمات ناعمة تصافح الوجوه المبتهجة ، والوجوه كلها ـ لا أدرى لماذا ـ مبتهجة ومقبلة على الحياة ٠

طالما أنا في المقهى لن أشبع من الفرجة ، كل شيء جديد بأن أحدق فيه بعيوني الشرقية الظمآنة ، وأفكر فيه بعقلي الشرقي المكمور ·· أمامي مباشرة نصب الجندى المجهول ، نصب فيكتور عمانويل الثانى ·· مبنى أبيض رحب · تكاد جدرانه المرمرية تضيء وحدها ولو لم يمسسها نور الشمس ·· مجموعات التماثيل التى تزين النصب وتتوزع على أربعة مستويات متدرجة تشكل عالما مكللا بالعظمة والمجد ·· التماثيل غاية فى الدقة ·· أبدعها لاشك فنانوها بمزاج ومتعة وحب ·· كل مجموعة على مستوى ما ترمز لسمة من سمات ايطاليا التاريخية والدينية والســـياسية ، ومهما اختلفت المذاهب وتعددت الفرق فان الكيان الفنى المتكامل يحتضن الجميع ، وكما هو رمز لايطاليا فى تشكيله الخارجى فانه يمثل أعماق ايطاليا أيضا فى محتواه ، اذ يضم المبنى المكتبة والأرشيف والمتحف ومعهد التاريخ الايطالى

على اليسار مبان عتيقة تصطف على أسطحها تماثيل صغيرة ، وعلى اليمين مبنى وقور ، منمق فى حدة – انه قصر فينسيا الذى كان مقرا للحكومة الفاشية حتى سنة ١٩٤٣ ثم أصبح متحفا ·

الميدان النظيف المتألق بكل مافيه صورة موحية بالفن والاحساس بالجمال ، تحملك على أن تشعر بالخوف على كل هذا من أى اساءة ، بل من أن تلمسه يدك ·

بكل رهافة تمتد يدك وبكل رقة تنظر عيناك ، وبكل الحب تفكر فيها وفيما سواها ، وتنحنى ، وتتضاءل ، وتنسحب الى داخلك حتى تلامس بطنك ظهرك ·

تسلل الى شعور بأنى فى حالة حب وأن سعادة غامضة فى الطريق الى ·· الحت على رغبة متحمسة أن أطلب زجاجة بيرة ·· يجب أن أتمرد قليلا ، وأفسد بعض الوقت ، أنا هنا وحدى ، وقـد

جئت خصيصا لكى اعرف واتذوق ، لم امتلك الشجاعة يوما لأجرب فى بلدى ٠

هل ستدور راسى ؟ ومــــاذا لو تدور ٠٠ فلنجرب ٠٠ ليتنى الاحظها وهى تدور ، ربما يختل توازنى اذا حاولت الوقوف وقــد اقع ٠٠ لماذا أتوقع أن يحدث كل هذا ؟ ٠٠ الناس يشربون أمامى اكثر من زجاجة ثم ينهضون كالخيول ٠٠ ولم أر أحدا ذهب عقله أو اختل توازنه ٠

أشرت للمتر ولما جاء طلبت منه زجاجة بيبسى كولا ، كان المقهى يزدحم بسرعة ٠٠ على بعد منضدتين جلس رجل عريض الصدر ، أصلع وكبير الرأس ، على عينيه نظارة طبية بيضاء ، ويبدو أن احدى عينيه من زجاج ٠

كان ينظر نحوى ٠ أطلت النظر اليه ٠ انشغل بوضع سيجارة فى مبسم ٠٠ اشعلها وعاد ينظر الى ٠

لم أشعر بارتياح لرؤية وجهه الضخم المستدير الأحمر ، ونظراته المريبة المصوبة نحوى ، داهمنى شعور بالقلق حين تذكرت فجـاة تعرض بعض العرب للاعتداء على يد اليهود المتطرفين فى أوربا وخاصة فى أعقاب حرب ١٩٧٣ ٠

شغلت نفسى بمص البيبسى من العلبة ، الى أن اشرقت على المقهى فتاة وأى فتاة ٠٠ آية فى الجمــــال ٠٠ سحر ٠٠ فتنة ٠٠ غواية ، لو حكمت شعبا لعبدها باكثر مما تعبد الشعوب المتخلفة حكامها ٠ سبحان الخلاق الذى ابدع الجمال من الراس الى القدم ٠

شعر يتدلى على جانبى وجهها أسلاكا من الذهب ، وجه مرمرى يتفجر منه الدم ٠٠ ملامح دقيقة ومنسجمــة ، عينان خضــــراوان واسعتان ترتدى بلوزة بيضاء فضفاضــة ، تتجمــــع عند الخصر

الرهيف ، على جانب الصدر وردة صغيرة حمراء يحملها غصن اخضر يمتد الى نهاية البلوزة وتنتشر حول الوردة أوراق نضرة ·

تلفتت فى المقهى الكبير تبحث عن مقعد ، استدارت نحوى وتقدمت بخطوات رشيقة وجسد أبدعه الله بصبر ، كانت الى جوارى منضدة خالية ، جلست بالطريقة التى تجلس بها الملكات(١) على العرش ، وأين هى الملكة التى تفوقها حسنا وشبابا ، يكفى أنها تبعث الأمل فى قلب كل من يرنو اليها وتدفعه للحياة ·

تساءلت عن السر فى أن أحدا لم يكن ينظر اليها غيرى ، لم يكن معها · غير علبة سوداء صغيرة وسلسلة مفاتيح ·· تطلعت الى الرعية فى بهاء ، ثم فتحت العلبة الرقيقة السوداء · اخرجت منها سيجارة · تمهلت قليلا ، وعادت ترنو الى الرعية ، كنت أقرب الجميع اليها ·· انظر اليها مشدوها ·· قررت ــ مادامت قد جلست بالقرب منى ــ أن أخصص الليلة للتفرج عليها ·· الليلة ستكون لها ولن انظر الى غيرها ·· سأظل احدق فيها ، أزن كل حركة واحلل كل نظرة وكل كلمة وكل اشارة ·

نهضت فجأة وأنا معلق بها واصبحت فوق راسى ، تقول بالايطالية ، والسيجارة فى فمها : ولعة ·

: هه

: ولعة

نسيتها لحظة وأخذت العن كل من حذرنى من التدخين ، ماذا لو دخنت عمرى كله لكى اسعد بلحظةكهذه ، اظل نحو خمس ثوانى انظر اليها عن قرب بينما أشعل لها السيجارة ·· التدخين سلوك جذاب ويعرف بالأصدقاء ·

---

(١) انا لا اعرف ما هى هذه الطريقة ، ولكنى اتصورها كذلك .

اعتذرت لها فمضت عنى الى الرجل الأصلع ، انحنت عليه فأشعل لها سيجارتها ٠٠ قدم فى غيابها شابان وفتاة ، جلسوا فى منضدتها ، ولما عادت ترددت لحظة وقد رأت المنضدة مشغولة ، ثم طلبت منى أن أسمح لها بالجلوس فأسرعت بالسماح ، وقد أدركت أخيرا اننى برغم كل ظروفى من المسعدين ٠٠

اكتشفت أن التدخين فعلا أسوأ شىء فى الدنيا ، فلو كنت أدخن لأشعلت سيجارتها وظلت عنى بعيدة ، أما الآن فليس بينى وبينها غير سنتمترات ٠

تطلعت الى اللوحة المتكاملة الروعة ٠٠ هى أمامى ، وخلفها نصب عمانويل الأبيض وعن يمينها الطريق الفضى الى الكلوزيوم الذى تبدو من بعد بعض جدرانه المتآكلة ٠

تحولت الى وقالت :

ـ أنت لست ايطاليا ٠

فرحت بالمفتاح الذى التقطته لتبدأ حديثا معى ، ولم أخجل لخيبتى قلت لها : كشفتنى لغتى المحطمة ٠

: ليست سيئة جدا

ثم شردت ، فخشيت أن يكون الحوار قد انتهى ٠٠ قلت

: ولكنها سيئة

قالت ببساطة وهى ترنو فى اتجاه الرجل ذى العين الزجاجية

ـ شهور قليلة تمكنك من نطقها بدقة

ـ لاحظت ذلك فعلا خلال الأيام القليلة الماضية

سحبت نفسا من سيجارتها وقالت قبل أن تنفثه ٠

ـ متى وصلت ؟

ـ منذ أربعة أيام

ـ هل ستبقى طويلا ؟

ـ عدة أيام أخرى

مالت نحوى وقد انتشر على وجهها مشروع ابتسامة صافية ، ثم قالت ببطء : هل استمتعت بوقتك ؟

من كل قلبى قلت : جدا

ـ كيف ؟

ـ لقد زرت أماكن هائلة الجمال ، وكان يكفى أن أمر فقط بالميادين ·· سواء أسبانيا أو نافونا ·· منيرفا أو كلونا ·· رأيت فيللا بورجيزى ونافورة تريفى ·· والفاتيكان معجزة بكل معنى الكلمة و ··

ـ كان الرئيس الأمريكى فورد هناك بالأمس ·

ـ لذلك أجلت زيارتى الى اليوم

ضحكت بصوت مسموع ، وتفجر جمالها مع ضحكاتها ، لكننى كنت مستفزا ويبدو أنها أدركت ذلك فقالت :

ـ صحة البابا لاتساعده أن يستقبل رئيسين فى يوم واحد فهمت وضحكت بلا حماس ، لكننى كنت فى الحقيقة فرحا لأنها تضحك ·

ـ هل قابلت البابا اليوم ؟

ـ وهل هذا ممكن ؟

ـ نعم ولكن طبعا بموعد

ـ اذا حدث أن قابلته فماذا أقول له ؟

انفجرت بالضحك ، وتبعثرت جلستها حتى كادت تنقلب على ظهرها ·· التفت نحونا بعض الرواد · لمحت الرجل الأصلع يصب نظراتـه علينا ·· نظراته ثابتة وملامحـه جامدة ·· بدا كتمثال شخص يستعد للانتقام ·

أحسست أن هذه الحسناء تجد سعادتها ولذتها فيما أقول ، ويبدو أننى أخرف ·· تساءلت وأنا أنظر الى علبة البيبسى ، أيكون مابها خمر شربته دون تمييز ·· فلماذا تضحك اذن ؟

حسن أن أكون سببا فيما نالته من ترويح ، ولكن ماذا قلت ؟ رنت الى بطرف عين ·· اكتشفت ما بداخلى ، أو كشفتنى ملامحى ، كان شعورى مزيجا من الغضب والخجل والحيرة ·· لم أحسم أمرى ·· سكنت فجأة واعتدلت فى جلستها ، وكأنها ضبطت متلبسة بالخروج عن الأدب ، أطفأت نصف السيجارة ·· رفعت عينى اليها ·· نظرت الى باحترام وود ·

سألتها : ماذا تشربين ؟

ـ يكفى كوب من البيرة

حدثت نفسى ·· لابد الآن من شرب البيرة ، ناديت المتر وطلبت زجاجتين ·· سألتنى : من أى بلد ؟

عادت صورة الأصلع ذى الوجه المستدير تهاجمنى ، وقد بدا وراءه بكل غلظـة مبنى الحكومة الغاشـية ·· تذكرت من جديد حوادث اعتداء اليهود على بعض الشخصيات العربية ·· الحرب ·· السادات ومعه الطفل الايرانى والايطاليين الذين يتفرجون على صورة السادات فى التليفزيون وعند باعة الصحف ·· ويتأملون

لفترة طويلة وجهه على أغلفة المجلات ·· يضحك واسنانه بارزة ، ما الذى يحاولون اكتشافه ؟

أعادت سؤالها : من أى بلد ؟

ــ من ايران

ــ هل يمكن لأى شخص أن يسافر الى ايران ؟

وخشيت أن تحملنى الكذبة الى مناطق مجهولة ، فقلت :

ــ ولماذا ايران بالذات ؟

ــ أريد أن أترك أوربا وأعيش فى بلد شرقى

ــ نحن نترك بلادنا لنأتى اليكم ، وأنتم تريدون الرحيل عنها ، والعيش فى بلادنا ·

ــ مهما طالت اقامة بعضكم فى أوربا فانكم عائدون ، والعودة دائما الى الشرق أمنية حتى لأبنائه ·

ــ الشرق فى معظمه تخلف ·

ــ من قال هذا ؟

ــ أنا

ــ وأنا أقول لك لا

ــ لا تحكمى على شىء لم تعرفيه

ــ بل عرفته ··

جاء المتر ووضع الزجاجتين وكاسين ، ملأتهما وتجرعت كاسى ثم ملأتها من جديد وسألتها :

ــ هل ذهبت الى بلد شرقى :

ــ ذهبت الى اسرائيل

تريثت لحظة وكأنى أسمع عن دولة لا وجود لها ، لم يكـن

اسم هذه الدولة قد ورد بخاطرى على الرغم من أنها كفكرة ملعونة لا تبرح رأسى ٠٠ أدركت أن بابا جديدا فى الحديث قد فتحناه على مصراعيه وعلى أن أستعد ٠٠ لن أقرب هذه البيرة ٠٠ سألتها :

ـ ولماذا اسرائيل بالذات ؟

ـ فيها أهلى واقاربى

ـ هل أنت يهودية

ـ نعم

طارت منى نظرة الى الرجل الأصلع ، فوجدته كما عهدته ٠٠ تمثال لاينظر الا الى ٠ وكأنه جهـــاز مثبت نحوى ، نظراته تدور حولى ، ثم تلتف وتمضى داخلى بنعومة كالخدر ٠

زاد قلقى بنسبة وتوجست ، اللعبة تتم بلا أسرار ، أوراقها غير مقلوبة ، وكلها فوق المنضدة ٠٠ استردتنى اليها قائلة :

ـ لم يكن هناك فارق كبير بين اسرائيل وأوربا ، على العكس كانت المشاكل أكثر وعلامات الاستفهام بلا نهاية والجميع غرباء ٠٠ لم تدم اقامتى أكثر من خمسة أشهر ٠

ـ هل تكفيك شهور خمسة كى تكتشفى مالا يسرك ؟

ـ أنا أكتشف بسرعة

ـ ألست هنا مع أسرة ؟

ـ لا

ـ والعمل ؟

ـ فى شركة كوك للسياحة

ـ ولماذا لاتكونين أسرة ؟

ـ أجريت تجربة غير موفقة

ـ هل كنت تبحثين عن الحب ؟

ـ الحب ليس مهما ٠٠ المهم توافق عناصر أخرى

ألقت فى فمها كأسا من البيرة وملأتها لها ٠٠ أشعلت سيجارة وارتاحت فى جلستها أكثر ٠٠ بدت كأنها تتأمل العالم وتزنه ، بينما تدخن بعمق ولذة ، نظراتها شاردة ٠٠ احترمت حضورها المسافر ٠ انتهزت الفرصة كى أتأملها ٠٠ لم تكن لدى الفرصة وأنا أحدثها ، كنت مشغولا باللغة ٠٠ بالبحث عن الكلمات وتجميعها فى جمل ٠

كان شعرها يتمدد على كتفيها وصـــدرها ، كأنه يقوم على حراسة الوجه الجميل ٠٠ فى وسط الوجه تتألق العينان والأنف المدبب فى شموخ كالمسلة المصرية فى قلب الفاتيكان ٠٠ والفم صغير وشامة الى اليمين قليلا تحت الشفة السفلى ٠٠ فى دفعة واحــدة ألقيت بجوفى كأس البيرة الذى انتظرنى طويلا

دنت منى قليلا ونظرت الى ، فهمت أنها تدعونى أن أقترب ففعلت ٠٠ فتحت أذنى وعينى ، قالت :

ـ هل تحب أن تقضى وقتا ممتعا ؟

سألتها فى شبه ترحيب :

ـ كيف وأين ؟

ـ فى الفندق الذى تقيم فيه

ـ انهم هناك يتفرجون على السادات

ـ هذا مناسب

ـ لا أفهم

حدقت فى وجهى بحدة وكأنها تلومنى ، تمهلت قليلا ثم قالت :

ـ ألا تود أن تمارس الحب ؟

الحب ·· أى الجنس ·· غير معقـول ·· هــل هذه الفتاة النادرة ·· يمكن أن ·· مستحيل ·· هذا الوجه المضىء الـذى خلق للعرض فقط ·· هذه التحفة التى يكفى النظر اليها كى تتحقق سعادة البشر المستحيلة تعرض على أن ··

أدركت فجأة أن أيامى الماضية كانت مثقلة بالبلاهة والعفن والدخان ، وأن هذه البلاد تريدنى وتراودنى · ترحب بى وتتشبث حتى لو لم تفهم ثرثرتى الفارغة ، أما أنا فأفهم ولو بالجهد كلامها النادر · تجذبنى هذه البلاد اليها ·· تفتح لى بابا فبابا ·

ـ لم أفهم بالضبط ماتقصدين

ابتسمت ونظرت الى فى حنان ·· فضحت ابتسامتها ونظرتها ما فيها من الرثاء لحالى ·· قالت : هل تعرف الفرنسية ؟

ـ قليلا

ـ هل يمكنك أن تفهم بها ؟

ـ ممكن

ـ وهل تعرفينها ؟

قالت بالفرنسية : هل تود أن تمارس الحب معى ؟

فهمت بوضوح ماتقصد ·· ياناس غير معقول ماتدعوننى اليه ·· قلت لها ·

ـ لم أفهم تماما ··

هل تعرف الألمانية ؟

دهشت لهذه الثقافة اللغوية ولم أخف فرحى لأنها تحاول معى كى أفهم ·· قلت :

ـ الا الألمانية ·

ـ الروسية اذن ··

ـ وهل تعرفينها ؟

ـ ما يفى بالغرض

عادت تبحث عن اجابة ، وقد بدا أن المسألة ليست عبثا كما اتصور ·

ـ وأنا فى الروسية بالضبط كالألمانية

ـ لم يبق غير الأسبانية والانجليزية

ـ لا زالت هناك لغات كثيرة

ضحكت على مضض وهددتنى بعينيها ، فخشيت المرأة العالمية

ـ لم تجبنى

ـ لتكن الانجليزية

ـ اذا لم تكن تعرفها سأنهض

ـ أعرفها ·· أعرفها

غرقت فى الضحك من جديد بينما هى جادة ومتربصة بى ، لن تتركنى اذا لم أفهم ، ولكنها ستنقض على وتخنقنى ، وأنا «مزقطط» وفرحان باللعبة الغريبة ، والدهشة فى الحقيقة هى أصل كل ما أنا فيه ·· عالـم غريب ·· كـــل هذا الجمال يطلب الى أن أوقع عليه بامضائى والفضل لكأسين صغيرين من البيرة ·

قالت ما قالته سابقا ، ثم سألتنى :

ـ هل فهمت ؟

أنقذتها من الضيق وأنقذت نفسى من فراقها

ـ نعم فهمت

ـ يمكنك أن تدفع ثلاثين ألف ليرة ·

ـ أنا !

ـ لا ·· أنا

ـ المفروض

ـ سأنهض

ـ لقد كنت تضحكين منذ قليل وأنا

ـ وأنت الآن تضحك

تحسب أنى أستهين بها ·· أنا فقط غير مصـــدق ، كلمـــا مضت فى تفاصيل الصفقة ، كلما أسرفت فى عدم التصديق ، وهذا سر ما يعترينى ـ لم أستطع أن أقول لها ذلك

ـ هل توافق على الثلاثين ؟

ـ فى الليلة !

ـ كثير ؟

ـ حتى الصباح ؟

ضحكت هى هذه المرة ، وبدا عليها أنها أخيرا تأكدت اننى أعبث ، ولم تجد مايبرر ألا تعبث هى الأخـرى ·· ســـألتنى بعين متحدية :

ـ وهل تقدر ؟

ـ لا

ضحكت وعدت أضحك أنا أيضا ·· لأنى تصورتها راضـــية بالحوار ، فعلى افتراض أنها لم تعثر على زبون الليلة،فقد استمتعت بالحوار مع أبله لايقدر قيمة النعمة التى هو فيها ·· أخذت كأسا وأخذت ·

كنت أود أن أسألها ·· لماذا اختارتنى أنا بالذات لهـذه المهمة ·· ما الذى يرتسم على مظهرى حتى دفعها لأن تعرض على أنا

دون رواد المقهى المزدحم أن أمارس معها الحب ، وأنا أعرف أن منظرى لايغرى أبدا بذلك ، هل هى مجرد مصادفة ؟ ٠٠ أو بحكم وجودى معها على منضدة واحدة ٠٠ من الذى اختار الآخر ؟

أنا الذى يتعين عليه أن يجيب ، لقد اختارتنى اليهودية ٠٠ ها هو الرجل الأصلع ، وها هى ليلة حمراء يشعلها الدم ٠

قررت ألا أعود الى البيرة ٠٠ ما الذى يحاك ضدى ٠٠ علم ذلك عند ربى ٠٠ لكننى أريد هذه اليهودية مادامت لا تمانع ٠٠ فهل أريدها لأنها جميلة أم لأنها يهودية ؟ ٠٠ ماكل هذه الاسئلة ؟ ٠٠ انك لم ترد شيئا وانما هى التى أرادت ورسمت ، وأنت لاتملك الا الموافقة ٠٠ لا ٠٠ أنا أوافق لأنى أريد ٠

أريد هذه اليهودية بالفعل ٠٠ لابد أن أريدها ، وليس عندى الآن رغبة الا فى هذه اليهودية بالذات ٠

ـ هل تجيئين كل يوم الى هذا المقهى ؟

ـ غالبا

واستدركت : فهمت قصدك ٠٠ ربما لاتصدق اذا عرفت سبب قدومى ٠

ـ قولى سأصدق

ـ أريد أن أتزوج

ـ وهل تبحثين فى المقهى عن زوج ؟

ـ التفاهم فى ممارسة الحب هو أهـــم سبب لنجاح الحياة الزوجية ٠

ـ هذا اذن التفاهم الذى كنت تقصدين ٠

ـ نعم ٠٠ لابد أن أختار زوجى بعد أن نتفاهم ، ولا تشغل بالك بغير ذلك من عوامل ، كالعلم والمال والأهمية الاجتماعية

– رائع ٠٠ ولم تعثرى بعد على من يصلح زوجا

– لا

– واذا حدث أن وجدتنى صالحا

– هذا لم يتحدد بعد

– افرضى

– أتزوجك ٠٠ هل تمانع ؟

– أنا مسلم

– لا يعنينى

– وأنت يهودية

– لا يعنينى

لا يزال يرقبنى بثبات غريب ٠٠ قلت لها :

– سيكون هناك دوما من يعجبك ، ولكنه يرفض الزواج

– لست فى عجلة ٠٠ سوف ألتقى يوما بمن يوافق ، وحتى لو لم أجد ، المهم أن هذه هى الطريقة المناسبة ٠

مؤكد أن هذا الرجل الأحمر ذا العين الزجاجية له علاقة بهذه اليهودية ٠٠ هذه اليهودية تلح بشكل مخيف ومرعب ، وهى أيضا جميلة بشكل باهر ، والندم سيلاحقنى العمر كله لو انسحبت من التجربة ٠٠ الصهاينة لا تنتهى حيلهم

كيف أقبل أن أسعى بقدمى الى الشرك المعد ، تلفت حولى كأنى أبحث فى الأفق عن دليل ٠٠ لقد انطفأ النهار ، واشتعلت الأضواء بالفرح ، وعما نويل الثانى يركب حصانه ، وايطاليا كلها حوله فى الموكب الأبيض ، وأعلى النصب تتحفز أربعة جياد على اليمين ، لجر عربة الوحدة وأربعة جياد لجر عربة الحرية على

اليسار ، وعلى كل عربة قائد ذو أجنحة ٠٠ من تراه يسبق ٠٠ الوحدة أم الحرية ٠٠ أم هما معا ٠

كانت السماء لاتزال هناك ٠٠ معتمة وخالية من أى نجم ، تحلق فيها سحب تأخذ أشكالا فنية رائعة وتلقائية ، تتحرك فى نعومة وتعيد التشكيل بسحر خاص لا يسمح بالانصراف عنها ٠٠ بدت السماء كما لو كانت سقفا لكنيسة ، وقد استعرض الفنانون عليها أجمل ابداعاتهم قالت :

ـ هيا بنا نذهب ٠

ـ الى أين ؟

ـ الى الفندق الذى تقيم فيه

تمهلت لحظة وسألتها :

ـ الست تقيمين وحدك ؟

قالت وعلى شفتيها بسمة مشجعة

ـ الأفضل فى هذه المسائل أن يكون المكان لك ٠٠

دغدغتنى صراحتها فاندفعت قائلا :

ـ هل تلعب الأرض معى

ـ نعم ٠

عدت الى الأصلع القمىء أو عاد الى ٠٠ لابد أن أبتعد عن هذا الرجل وخروجى الآن سيحدد موقفه ٠٠ انقذتنى من أفكارى

ـ هيا بنا

نهضنا واقتادتنى الى سيارة صغيرة جدا ومستديرة ، قبل أن انثنى وأدخل تطلعت ورائى ٠٠ كان الأصلع الضخم واقفا يصوب نظراته علينا ٠٠ ما أضعفنى ٠٠ بل ما أضيعنى !

دخلت السيارة كأنى يد تختبأ فى قفاز ، انها يهودية ولابد أن

أمضى فى الشوط الى نهايته ، حتى لو لم تكن على هذه الدرجة من الجمال والعذوبة ٠

نظرت اليها فابتسمت ٠٠ كانت ملامحها توحى بأنها عادت بصيد ثمين ٠٠ بى رغبة خفية ومجنونة أن أعرف هذه اليهودية ، ربما فضولى الذى يسـحبنى كالثور الى ميدان المصـارعة ٠٠ لقد نزل الزورق الى الماء الهائج والأمر متروك للموج ٠

لم تمنعنى خواطرى التعسة من المضى فى طريقى متعلقا بالعربة المندفعة دون أن أعبأ بالاتجاه المجهول ٠٠ الأمر يبدو كما لو كان مرتبا من قبل جهات عليا ٠٠ عليا جدا ٠٠ تدفعنا وتراقبنا ٠

بأناقة وثقة أشعلت اليهودية سيجارة ٠٠ أخذت نفسا عميقا ممتدا ومشتاقا ٠٠ نفثت كمية كبيرة من الدخان

بعد عدة شوارع توقفت أمام فيلا مظلمة

– هل تسكنين هنا ؟

– نعم

– ولكنها فيلا عظيمة

– وأنا أيضا

لم تقصد الى البوابة الرئيسية المكبلة بالحديد ، توجهت الى باب حديدى صغير فى نهاية سور الفيلا ٠٠ ضغطت زرا فأضاءت لمبة وبدأت تخطو فوق ممر من الخضرة على جانبيه شجيرات تتوجها أزهار ملونة ٠٠ تبعتها ٠٠ مضى الممر بها وبى الى ماوراء القصر الكبير ، قبل أن يغيبنى القصر نظرت خلفى ، لم يكن ثمة مخلوق ٠

نادتنى ٠٠ تبعتها ٠٠ ضغطت زرا فازدهر المكان بالنور ٠٠ كان هناك مبنى صغير ، دخلت وأنا فى اثرها ٠٠ انحنت على الأرض والتقطت ورقة وضحكت ٠

ـ ماذا هناك ؟

ـ صديقتى التى تقيم معى ، لن تبيت الليلة هنا ٠

ـ هل تسكن معك أخرى ؟

ـ أنا الذى أسكن معها ، انها زميلتى فى الشركة

ـ وهذه الفيلا

ـ فيلا عمها وهو رجل أعمال كبير ، جذبه العمل منذ سنوات الى أمريكا وكندا ، سمح لها بالاقامة فى هذه الدار الصغيرة ٠

ـ وهى سمحت لك

ـ وأنا سمحت لك

فى أول كرسى قعدت ٠٠ كنت أشعر بحـــاجة ماســـة الى الجلوس ، وكنت أشعر بالظمأ والبرد ٠

ـ هيا ٠٠ خذ لك حماما ساخنا

ـ لقد اغتسلت قبل لقائك مباشرة

ـ سوف أعد بسرعة طبقين من المكرونة

ـ كوب من الماء المثلج الآن أفضل

جاءتنى بكوب طويل من الماء ومضت الى الداخل ٠٠ أسرعت الى باب الشقة فأغلقته بالمزلاج والمفتـــاح من الداخل ، شـعرت ببعض الراحة رغم ماكنت أجتازه من دروب مخيفة ، وما كان ينتابنى من هواجس ٠٠ لطالما ألقيت بنفسى فى المأزق ، ولكن كانت هناك دائما عناية الله ٠

وهى تعبر حجرتها الى المطبـخ فى بلوزة قصيرة وشـــورت قالت :

ـ استرخ بالداخل وتخفف ٠

دخلت حجرتهـــا · افرغت كل جيوبى من الأوراق والنقــود ووضعتها على سطح الدولاب بعيدا عن أى يد أو عين ·· تخلصت من الحذاء والجوارب ·· تأكدت من أن النافذة مغلقة ·

سألتنى من المطبخ : ما اسمك ؟

لا يجب أن أذكره ·· أجبتها بلا جهد :

ـ صادق ·· وأنت

ـ مارى ·· مارى ويزل

وجدت على منضدة صغيرة عدة كتب ·· قلبت فيها ، رواية لكاتب ايطالى اسمه دينو بوتزاتى ورواية يبدو أنها جنسية لكاتبة فرنسية اسمها مونيك لانج ·· فتحت دولابها ·· بعثرت نظراتى فيه بلا عناية ·· أغلقته ·· مضيت الى الحمام ·· تأملته وأنا أتخلص من البيرة ·· مررت عليها بالمطبخ ودارت فيه نظراتى ·· كانت تعمل بحماس ورشاقة وفخذاها المرمريان يتألقان أسفل «الشورت » ·

ـ تعال

ـ لا أحب المطابخ

عدت الى حجرتها ، وفى الطريق فتحت باب غرفة صديقتها ، لكنى أسرعت فأغلقتها وتمددت على السرير ·

لقد كان ثمة الحاح يقينى هنا فى قلب المعركة ، على أمل أن أذوق طعما خاصا وفريدا للتجربة ·

تقدمت الى ساحة العرش الممتد بأبهاء روما ، قلبى يدق ، لكنى أتقدم ·· قلبى يحدثنى بقـــرب النهـــاية المفجعة ، هأنذا ألين لها وأستسلم ·· فلتكن النهاية ماتكون ·· يكفى أن أتخلص من اعتيادى لون الأيام الصدئة وطعم الأحلام الخرساء والدوائر المرسومة ، لتكن النهاية ماتكون ، لكنى أخشى على أمى المنتظرة من سيف الصدمة ·

ـ اختفى ولا أثر له

ـ ولدى ‥ كبدى

ـ طفت جثته على النهر

ـ روحى وضناى

ـ وجدوه مقتولا بغرفته بالفندق

لن تنطق حرفا ‥ ستموت على الفور ‥ لا ‥ اطمئنى يأمى ولا تقفى أمام الأيام المجلوة ‥ روما مرآة تعكس قلب الشمس ‥ روما كأس ذابت فيه تواريخ الكواكب

مضت الأفكار تطارحنى التأمل ‥

تذكرت قريتى المسكينة التى تقبع راضية أو مكرهة على بعد من المدينة مقداره خمس كيلو مترات من التراب ‥ طال دورانها حولى والحاحها على ٠

أيتها القرية الطيبة

يا أطيب قرى العالم ‥ أرجو أن تصرفى عنى الآن تذكاراتك الأثيرة ‥ اطمئنى فمنقوش فى صدرى الى الأبد عـرق حواريك المظلمة وصفصافتى وأرضنا الصـــغيرة والبهائم وأكوام السبـاخ والطيور الوديعة والأشجار الحنون ٠

حصى السيجة وزفة المولد والعيش السخن ومقام سيدى أبو نوار ‥ حياء النساء وأسرارهن ‥ حكمة جـــدى وسيرة عنترة والهلالية وبيبرس وهوجة عرابى ومشية أبو قردان وتوتر الهدهد وقفز الأرنب وصوت الخفافيش فى الطاحونة المهجورة وزحام المتسولين أمام السيد والسيدة ٠

اطمئنى فمازالت بأنفى طيوب المساجد وأمام عينى الآن قدما

أبى المشققة وديوكنا الرومية تتهادى فى صحن الدار وضـــحكاتها المتغطرسة تجلجل اذا الصمت ساد ، وألفونس الذى كان فى رمضان يصوم معى ٠

يا صاحبة القلب المتأجـج دوما بالشـــوق الى الأحباب ٠٠ لاتخافى ٠٠ لن تحرضنى البيضاء الجميلة عليك ٠٠ ولاتخشى على من دهشتى ، أنا كما عهدتنى أسلمها لله فسلميها ٠٠ خلى الآن مابينى وبين التجربة ٠ لن أقطع حبلى السرى ، ولو حاولت لا ينقطع ٠

وجهك لا ينطمس ، ولا تعلوه كتابة أخرى غير ماكتب الاله فى الزمن الوليد فاطمئنى ٠٠ قد يكون فى الرجوع اليك أمـــان من مهالك ، ولكن فيه الندم ، وأنا كما تعلمين لا أطيق الندم ٠

هذا أنا كما أردت ، أنت صنعت بى ذاك الولد ٠٠ ساذج ٠٠ متوجس ٠٠ مرتعد ٠ يخشى على القلب من حرق الثياب ٠٠

(سمعت صراخ اللحم المســتجير ٠٠ بلغت أنفى رائحـــة الشواء ٠٠) كيف حالهم فى مصر ٠٠ أمى وأبى وأخوتى ٠٠ هل تراها آخر مرة يخطرون ببالى ، لم أشتر بعد الهدايا الواجبة ٠

ظهرت أمامى فجأة تجفف يدها فى منشفة ملونة ، ابتسمت وهى تقول : أرأيت ٠٠ لقد انتهيت

– براڤـــو

كان الى جوارى دينو بوتزاتى

– هل تحب القراءة ؟

– نعم

– أى لون من الكتب ؟

– أى لون يضيف لى معرفة بالنفس البشرية

– هذا ليس فى الكتب

ايدتها وحسدتها على اجاباتها الجاهزة ·· ولكن ماذا أفعل وأنا مغرم بالكتب ·· تذكرت من جديد أنها يهودية ·· وتمثل لى الرجل الأحمر ذو العين الزجاجية ·

ـ دقائق فى الحمام وأكون بعدها معك

مضت الى الحمام وأسرعت أنا الى المطبخ ، فأخذت سكينا وضعته فوق سطح الدولاب مع الأوراق ، لم أشأ أن أضعه تحت الوسادة فالعثور به سهل

طلعت على فى قميص قصير شفاف ، لاشىء تحته الا الجسد المتألق ·· كانت نظرة واحدة الى الصدر المستبد كفيلة بطرد الأفكار المحمومة ·· وكان لخطوها دمدمة وهزيم ·· قفزت نحوها لأستقبلها ·· دنوت منها ·· سبقتها رائحة ناعمة ومتميزة ·

ـ لقميصك رائحة المطر

ـ قميصى قطعة من جسدى

تفجر الشره المختزن فى دمائى مذ ولدتنى أمى ، قبلتنى على خدى وأبعدتنى عنها ·· هجمت عليها وأخفيتها فى صدرى ·· غمرتنى رائحة لحمها الطرى الطازج ·· برقة ابعدتنى ·

ـ تمهل

جلسنا على منضدة فى المطبخ نأكل دون أن أستمتع بطعم الأكل الذى كان ولا شك شهيا

ـ هل هذه الفتاة يهودية !

ـ ولماذا لاتكون ، ما دخل ديانتها فى جسدها وجماله

ـ الصهاينة غيروا فكرتنا تماما عن اليهودية بوصفها دين

ـ توقعت أن يكون لجسدها رائحة منفرة

– هل حقا سيسلم له نفسه كل هذا الجمال الموغل فى الوحشية
– هل كل أجسام النساء كذلك بصرف النظر عن الديانات والجنسيات ٠

– أظن أنها متشابهة
– لماذا لا تأكل ؟
– بل آكل
– ألا يعجبك
– انه ٠٠

انشق جسدى نصفين عندما سمعت جرس الباب ، كان يرن فى بعنف زائد ٠٠ ارتعدت كل خلية فى جسدى وتوترت كل أعصابى ٠٠ قست بسرعة المسافة بينى وبين الدولاب الذى يعلوه السكين ، ثم تذكرت أن بيدى سكينا ٠

همت مارى بالقيام ٠ أشرت اليها محذرا من التحرك ٠

أطبقت على المكان لحظات صمت ، حتى تصورت أن هذه الشقة نقلت من موضعها الى أعمق أعماق الأرض ٠ سقط قلبى فى قدمى وكاد يئن من الرهبة وسوء الظن ٠٠ بدا الصمت اكأنه يتحدانى ، ولم أستطع أن أرى نفسى فى أى ضوء بطولى ٠٠ تأكدت الآن أن الطريق مفتوح تماما كى تتقدم نحوى موتة بشعة ٠

توجهت صوب الباب ٠٠ نظرت بالعين السحرية ٠٠ لم أجد أحدا ٠٠ ثم دوى جرس آخر ٠٠ تملكنى الرعب ، وفتحت الشراعة بحذر ربع فتحة ، فوجدت طفلا جميلا ، ينتظر فى أدب أن يفتح لـه الباب ٠ أعدت الشراعة بنعومة شديدة ، وأعدت كل قطعة فى جسدى الى موضعها ٠

سألتنى ٠٠ قلت لها : طفل صغير

– لعله باولو ابن جارتنا ٠٠ انه حبيبى ، لماذا لم تفتح لــه دنوت منها

أبعدتنى بلباقة وقامت ترفع الأطباق ٠ غسلت يديها وفمهـــا بالصابون مرتين : وغسلت أسنانها بالفرشاة ، وتعطرت وصبت على عطرا رجاليا ٠

تأملتها وهى تتقدم نحوى فى هدوء ، وعلى الشفتين ابتسامة مرحبة ومشجعة ٠٠ القميص الشفيف يبرق على الجسد الرخامى الأحمر ، فيبدو لحظة أبيض وفى لحظة أخــرى فضـــى وفى ثالثة رمادى ، ثم لا يبدو على الاطلاق

داهمتنى رعشة ٠٠ لمحت الكتف العارى البض المستدير ، كرة من الوهج المستعر ٠٠ دنوت منها ٠٠ بذلت جهدا خرافيا كى أبدأ فى هدوء ٠٠ قبلتها ٠٠ كان لشفتيها طعم البارود ٠٠ نفس رائحة حبش وأطاليا » الذى كان لعبتنا الأثيرة ونحن أطفال ٠٠ توالت القبلات فى احتدام وتأهبت لاجتياز العوالم الغريبة ٠

حين لمس جسدها العريان جسدى العريان ، تكشـــفت بعض الأسرار الأسطورية ، وقرأت بعض حروف من كتاب الخلق ، وأتيح لى فى البداية أن أتذوق طعم اللحظة بكل كيانى ٠٠ أحسست بالحــر الشديد فجأة وطرقت رأسى صورة الرجل الأصلع ، فطردته بعنف وطردت كل شىء ٠٠ أطلقت لنفسى العنان واستسلمت للبحر العاتى ٠٠ نسيت الأصلع والسكين والقضية ، ونسيت أنها يهودية ، وأنى ٠

بدأت تتلوى كالثعبان ، وتنقش على جسدى صورا لحيوانات مجنونة لا أظنها تعيش الا فى أعمق أعماق البحر ، وصورا لطيور بأجنحة فضية لا تكف عن الغناء ٠٠ هل يمكن أن تعيش هذه الطيور الا فى السماء السابعة ؟

شرعت فى الطلوع نشوتها الوهاجة وأنا مبهور أتعلم وبسرعة غريبة أتعلم ·· هل كانت مهرة اليهود أم مهـرة الغـــرب أم مهرة العشق ·· أم تراها كانت الحكم الصادر باعدام السنوات المملة ؟

تغلغل فى عطرها وضوءها والسحر الجميـل ·· تلاشـــت المسافات والكلمات وأوهام الذاكرة ·· تكشفت لى أعماقى الخربة وجوعى للسرور الشجى ·

اجتزنا ممرا الى الليل المبارك وطلعنا منه الى ربوة ووقت كسول ·· ها هو النبع الذى تاقت اليه حقولى ·

عدت أتأمل ـ حين أتيحت الفرصـــة ـ فى دراما الوجـود وعبقرية الخلق ·· هذا التشكيل الالهى ، وكيان المرأة اللطيف المسيطر وجسدها ليس فقط القائد السيمفونى البارع ولكنه فرقة موســـيقية هائلة·

أحسست بعد حين بالمساء وتحلل الأشياء ، وأبصرت دمـــى يتسرب من عروقى كدخان يعلو ثم يتلاشى ، وتكسرت فى جسدى المرايا واعتم اللؤلؤ ·· فى سكون تمدد النخيل ونام ·

ـ استيقظ وشاهد جسدى المشوه ، لن أصلح لشىء بعد ذلك ·

صحوت دون أن أفتح عينى على قبلاتها تغمر وجهى ، فتذكرت أين أنا ، وأدركت أن لى جسدا محطما وجفنا ثقيلا ·

ـ صباح الخير

ـ أرنى يديك ·· أنت بلا أظافر ، فكيف نبتت بالليل لك المخالب فتحت أخيرا عينى ، فداهمنى ضوء نهـــار جديد ·· كانت عريانة يمتلأ جسدها بالبقع الحمراء ·· هالنى مافعلت وما تخلف عن النار من رماد ·· أسرعت بارتداء ملابسى · وضعت على المنضدة ثلاثين ألف ليرة ·· سألتنى :

– الى أين ؟

– الى الشارع

– ألم تقل أنك ستبقى عدة أيام أخرى

– ..

– ما رأيك أن تبقى معى وسأقوم أنا بعرض روما عليك والذى ستدفعه فى الفندق ، ادفعه لى ، ولن تدفع شيئا فى الأمسيات ولا حتى فى الطعام ، اما البنزين فعليك .

– سأذهب أولا ثم أفكر

– هيا اذن .. سآخذك فى طريقى .. أين الفندق ؟

ذكرت لها اسم فندق قريب من الذى أنزل فيه ، أوصلتنى بسيارتها المدورة ، وقبل أن أنزل قالت :

– هل يسمحون لى بالعيش فى مصر .

أظننى كنت سأقع من طولى لو كنت واقفا ، كنت لا أزال بالسيارة ، نهضت لاكسب وقتا وأفكر .. انحنيت وسألتها : ولماذا مصر بالذات !

ضحكت ونظرت الى نظرة ذات مغزى ، ثم قالت :

– سأمر عليك بعد خروجى من الشركة

دخلت الفندق حتى تغيب عنى وأغيب عنها .. استقبلنى بسرعة شخص أنيق .. سألته على الفور :

– هل تنزل هنا سيدة اسمها مارى ويزل

بحث فى دفتره ثم قال : لا

شكرته وعدت الى الفندق .. أنهيت اقامتى فورا وأسرعت بمغادرة روما .

يونيو ١٩٧٩

المحتويـــات

مؤلف الكتاب

- فؤاد محمود قنديل
- يعمل حاليا مديرا لادارة النشر بالهيئة العامة لقصور الثقافة
- رئيس تحرير سلسلتى مكتبة الشاب وأصوات أدبية
- حائز على كأس أحسن كاتب قصة عام ١٩٧٩ من جمعية القبانى الأدبية
- نشر انتاجه الأدبى من القصة والمقـــالة فى معظم الصـــحف والمجلات العربية بدءا من عام ١٩٦٦
- صـــدر له :

١ ـ عقدة النساء ـ مجموعة قصصية

٢ ـ كلام الليل ـ مجموعة قصصية

٣ ـ اشجان ـ رواية

٤ ـ الناب الأزرق ـ رواية

٥ ـ العجز ـ مجموعة قصصية

٦ ـ السقف ـ رواية

٧ ـ شفيقة وسرها الباتع ـ رواية

٨ ـ عشق الأخرس ـ رواية

٩ ـ موسم العنف الجميل ـ رواية

١٠ ـ د . محمد مندور ـ تراجم

١١ ـ نجيب محفوظ « كاتب العربية الأول » ـ تراجم

١٢ ـ احسان عبد القدوس عاشق الحرية ـ تراجم

تحت الطبع :

١ ـ الأدب الأفريقى ـ دراسة

٢ ـ شدو البلابل والكبرياء ـ مجموعة قصصية

٣ ـ واوا ـ رواية

٤ ـ نظرات فى المرأة والزواج ـ دراسة اجتماعية

رقم الايداع ١٩٩٠/٣٦٤٩

الترقيم الدولي T,S,B,N, 977 — 01 — 2431 — 1

الهيئة المصرية العامة للكتاب